# ذمُّ المتخلِّفين عن الجهاد في سبيل الله

إعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ ٢٠١٢ م

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد المرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه رسالة صغيرة قد جمعت فيها الآيات والأحاديث التي تـذم المتقاعسين والمتخلِّفين عن الجهـاد في سـبيل الله بغـير عـذر شرعي،وهي موجهة لهؤلاء خاصة لعلهم يثوبون إلى رشدهم قبـل فوات الأوان،

قال تعالى:{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِـي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْـحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) } [التوبة]

بل توعد الله المتخلفين بغير عذر بالعذاب الأليم بقوله تعالى:{يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّـاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ

قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَــدِيرٌ (٣٩)}
[التوبة:٣٨،٣٩]

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه،ما بالكم إذا قيل لكم:اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله لقتال أعــدائكم تكاســلتم ولزمتم مساكنكم؟ هل آثرتم حظوظكم الدنيويــة علــى نعــيم الآخرة؟ فما تستمتعون به في الدنيا قليل زائل،أما نعــيم الآخــرة الذي أعده الله للمؤمنين المجاهدين فكثير دائم.

إن لا تنفروا أيها المؤمنون إلى قتال عــدوكم يــترلِ الله عقوبتــه بكم،ويأت بقوم آخــرين ينفــرون إذا اســتُنْفروا،ويطيعون الله ورسوله،ولن تضروا الله شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد،فهو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه،وما يريده الله يكون لا محالة،والله على كل شيء قدير من نصر دينه ونبيه دونكم.[1]

وعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا تَــرَكَ قَــوْمٌ الْجِهَادَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ»[2]

هذا وقد قسمته للمباحث التالية:

المبحث الأول =التخلف لغة

---

[1] - التفسير الميسر (١/ ١٩٣)

[2] - المعجم الأوسط (٤/ ١٤٨)(٣٨٣٩ ) صحيح لغيره

المبحث الثاني= التخلف عن الجهاد اصطلاحا

المبحث الثالث =فريضة الجهاد شاقة على النفس الإنسانية

المبحث الرابع =حكم التخلف عن الجهاد أو تركه

المبحث الخامس= الآيات الواردة في «التخلف عن الجهاد»

المبحث السادس =الأحاديث الواردة في ذمّ التخلف عن الجهاد

وأخيراً من مضار (التخلف (القعود) عن الجهاد)

راجياً من الله تعالى أن يجعله حجة على كل متقاعس ومتخاذل عن نصرة إخوانه في سبيل الله.وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم،وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والدال عليه .

قال تعالى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [التوبة:٤١]

**الباحث في القرآن والسنة**

**وعضو الهيئة العامة للعلماء المسلمين بسورية**

**علي بن نايف الشحود**

**٢ جمادى الأولى ١٤٣٣ هـ الموافق ل ٢٠١٢/٣/٢٤ م**

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

# المبحث الأول

## التخلف لغة

التخلّف مصدر قولهم:تخلّف عن الشّيء يتخلّف،وهو مأخوذ من مادّة (خ ل ف) الّتي تدلّ على الخلف الّذي هو خلاف قدّام أي التأخّر الّذي هو نقيض التّقدّم،يقول ابن فارس:

الخاء واللّام والفاء أصول ثلاثة:أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه،والثّاني:خلاف قدّام،والثّالث:التغيّر،يقال من المعنى الأوّل:هو خلف صدق من أبيه،وخلف سوء من أبيه،فإذا لم يذكروا صدقا ولا سوءا،قالوا للجيّد خلف وللرّديء خلف،قال تعالى:فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ (مريم/ ٥٩) وسمّيت الخلافة بذلك لأنّ الثّاني يجيء بعد الأوّل قائما مقامه،وتقول:قعدت خلاف فلان أي بعده،والخوالف في قوله تعالى:رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ (التوبة/ ٨٧) هنّ النّساء؛ لأنّ الرّجال يغيبون في حروبهم وغاراتهم وهنّ يخلفنهم في البيوت والمنازل وقيل:الخالفة:عمود الخيمة المتأخّر،ويكنى بها عن المرأة لتخلّفها عن المرتحلين،وجمعها:خوالف،ويقولون في الدّعاء:خلف الله عليك أي كان الله تعالى الخليفة عليك لما فقدت من أب أو حميم،وأخلف الله

لك:أي عوّضك من الشّيء الذّاهب مـــا يكـــون يقـــوم بعـــده ويخلفه،ويقال من المعنى الثّاني (وهو خلف ضدّ قدّام):هذا خلفـــي وهذا قدّامي،ومن المعنى الثّالث قولهم:خلف فـــوه إذا تغيّر،وقـــال الرّاغب:ويقال:خلّفته:تركته خلفي،قال تعالى:فَـــرِحَ الْمُخَلَّفُـــونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ (التوبـــة/ ٨١) أي مخالفين،وقـــال القرطبيّ:المخلّف:المتروك،أي خلّفهم الله وثبّطهم أو خلّفهم رسول الله ﷺ والمؤمنون لّما علموا تثاقلهم عن الجهاد،وكان هذا في غزوة تبوك،والخلاف:المخالفة،ومن قرأ خلف رسول الله:أراد التّأخّر عن الجهاد[٣]،والخالف كالمتخلّف:المتـــأخّر لنقصـــان أو قصـــور،قال تعـــالى:فَاقْعُـــدُوا مَـــعَ الْخـــالِفِينَ (التوبـــة/ ٨٣) قـــال ابـــن عبّاس:الخالفون:من تخلّف من المنافقين،وقال الحسن:مـــن النّســـاء والضّعفاء من الرّجال (فغلّب المذكّر) وقيل:المعنى فاقعـــدوا مـــع الفاسدين من قولهم:فلان خالفة أهل بيته إذا كان فاسدا فيهم من خلوف فم الصّائم[٤]،والخلف:القرن بعد القرن،والخلف:الرّديء من القول،والخلف:ما جاء من بعد،والخلف أيضا:ما اســـتخلفته مـــن شيء والخلف بالضّمّ:الاسم من الإخلاف،والخلف بالكسر حلمة

[٣] – تفسير القرطبي (٨/ ١٣٧) .

[٤] – المصدر السابق (٨/ ١٣٨) وهذا راجع إلى المعنى الثالث الذي ذكره ابن فارس.

ضـــرع النّاقة،والخلفـــة:أن يـــذهب أحـــد الشّـــيئين ويجـــيء الآخر،والخلفـــة:اخـــتلاف اللّيـــل والنّهـــار،والقوم خلفـــة:أي مختلفون،والخلاف:المخالفة،والتّخلّف:التّأخر،يقال:خلّفت فلانـــا ورائي فتخلّف عنّي أي تأخّر،وخلفه يخلفه صار خلفه،واختلفـــه أخذه من خلفه وخلّفـــه وأخلفـــه:جعلـــه خلفـــه،وخلف عـــن أصحابه:تخلّف عنهم،والتّخلّف:التّأخّر،وفي حديث سعد:فخلّفنـــا فكنّا آخر الأربع،أي أخّرنا و لم يقدّمنا،وفي حـــديث الصّـــلاة:«ثمّ أخالف إلى رجال فأحرّق عليهم بيوتهم» أي آتيهم من خلفهم،أو أخالف ما أظهرت من إقامة الصّلاة،وأرجع إليهم فآخذهم علـــى غفلة،ويكون بمعنى أتخلّف عن الصّـــلاة بمعاقبتـــهم،وفي حـــديث السّقيفة «وخالف عنّا عليّ والزّبير»[٥] أي تخلّفا،وجاء خلافـــه أي خلفه[٦].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥] – صحيح البخاري (٨/ ١٦٨) (٦٨٣٠ )

[٦] – مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٢١٠)،المفردات للراغب (١٥٧)،القاموس المحيط (٣/ ١٧٨)،الصحاح (٤/ ١٣٥٨)،ولسان العرب (٢/ ١٢٣٢) .

## المبحث الثاني

## التخلف عن الجهاد اصطلاحا

لم تذكر كتب المصطلحات هذا التّعبير ضمن المصطلحات الّتي أوردتها،ويمكننا أن نعرّف ذلك في ضوء ما ذكره اللّغويّون والمفسّرون فنقول:

التخلّف عن الجهاد:هو أن يتقاعس المسلم ويتأخّر عن استفراغ وسعه في مدافعة العدوّ من الكفّار والمشركين.[٧]



---

[٧] - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ﷺ-دار الوسيلة للنشر والتوزيع،جدة (٩/ ٤١٤٦)

## المبحث الثالث

## فريضة الجهاد شاقة على النفس الإنسانية

النفس بطبيعتها تكره القتال،لأن فيه إزهاق الأرواح،وهي تتعلق بهذه الدنيا ومتاعها الزائل،وقد بين الله تعالى ذلك في القرآن الكريم،{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١٦]

كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بالإِنْفَاقِ عَلَى اليَتَامَى وَالَمسَاكِينِ لحِمَايَةِ الُمجْتَمَعِ منْ دَاخله،كَذلكَ فَرَضَ اللهُ الجِهَادَ عَلَى الُمسْلمينَ،وَمُحَارَبَةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ،ليَكُفُّوا عَنْ الجَمَاعَةِ الُمسْلمَةِ شَرَّ أَعْدَائها.وَالجِهَادُ فَرْضُ كفَايَةٍ إِذَا قَامَ به بَعْضُ الأُمَّة سَقَطَ عَنِ البَاقينَ،وَالجِهَادُ وَاجبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلمٍ غَزا أَوْ قَعَدَ،فَالقَاعدُ عَلَيه أَنْ يُعينَ إذا اسْتَعَانَ بِه النَّاسُ،وَأَنْ يُغيثَ إِذَا اسْتَغَاثُوا به،وَأَنْ يَنْفرَ إذا اسْتُنْفرَ.

وَيَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى:أَنَّ الجِهَادَ فيه كُرْهٌ وَمَشَقَّةٌ عَلَى الأَنْفُسِ،منْ تَحَمُّلِ مَشَقَّة السَّفَرِ،إِلَى مَخَاطرِ الحُرُوبِ وَمَا فيهَا منَ جَرْحٍ وَقَتْلٍ وَأَسْرٍ،وَتَرْك للْعيَالِ،وَتَرْك للتِّجَارَة وَالصَّنْعَة وَالعَمَلِ..إلخ،وَلكنْ قَدْ يَكُونُ فيه الخَيْرُ لأَنَّهُ قَدْ يَعْقُبُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ بالأَعْدَاءِ،وَالاستيلاءُ

عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَبِلاَدِهِمْ.وَقَدْ يُحِبُّ الْمَرْءُ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَهُ،وَمِنْهُ الْقُعُودُ عَنِ الجِهَادِ،فَقَدْ يَعْقُبُهُ اسْتِيلاءُ الأَعْدَاءِ عَلَى البِلادِ وَالحُكْمِ،وَاللهُ يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الأُمُورِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُها العِبَادُ.[8]

إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة.ولكنها فريضة واجبة الأداء.واجبة الأداء لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم،وللجماعة المسلمة،وللبشرية كلها.وللحق والخير والصلاح.

والإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقة هذه الفريضة،ولا يهون من أمرها.ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها.فالإسلام لا يماري في الفطرة،ولا يصادمها،ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل..ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر،ويسلط عليه نورا جديدا إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته،وتسيغ مرارته،وتحقق به خيرا مخبوءا قد لا يراه النظر الإنساني القصير..عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها.نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور..إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيرا.ووراء

[8] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٢٣،بترقيم الشاملة آليا)

المحبوب شرا.إن العليم بالغايات البعيـــدة،المطلع علـــى العواقـــب المستورة،هو الذي يعلم وحده.حيث لا يعلم النـــاس شـــيئا مـــن الحقيقة.

وعندما تنسم تلك النسمة الرخية على الـــنفس البشـــرية تهـــون المشقة،وتتفتح منافذ الرجاء،ويستروح القلب في الهاجرة،ويجنح إلى الطاعة والأداء في يقين وفي رضاء.

هكذا يواجه الإسلام الفطرة،لا منكرا عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية،ولا مريدا لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف.ولكـــن مربيا لها على الطاعة،ومفسحا لها في الرجاء.لتبذل الذي هـــو أدنى في سبيل الذي هو خير ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة،ولتحس بالعطف الإلهي الذي يعرف مواضع ضعفها،ويعترف بمشـــقة مـــا كتب عليها،ويعذرها ويقدرها ويحدو لهـــا بالتســـامي والتطلـــع والرجاء.

وهكذا يربي الإسلام الفطرة،فلا تمل التكليف،ولا تجـــزع عنـــد الصدمة الأولى،ولا تخور عند المشقة البادية،ولا تخجل وتتـــهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة.ولكن تثبت وهي تعلـــم أن الله يعذرها ويمدها بعونه ويقويها.وتصمم علـــى المضـــي في وجـــه المحنة،فقد يكمن فيها الخير بعد الضر،واليسر بعد العســـر،والراحة

الكبرى بعد الضنى والعناء.ولا تتهالك على ما تحب وتلتـذ.فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة! وقد يكون المكروه مختبئا خلف المحبوب.وقد يكون الهلاك متربصا وراء المطمع البراق.

إنه منهج في التربية عجيب.منهج عميق بسيط.منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة.بالحق وبالصدق.لا بالإيحاء الكاذب،والتمويه الخادع..فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمرا ويكون فيه الخير كل الخير.وهو حق كذلك أن تحب النفس أمرا وتتهالك عليه.وفيه الشر كل الشر.وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس مما وراء الستر المسدل؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور؟! إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالما آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه.وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل في صميم الكون،وتقلب الأمور،وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه.

وإنها لتتركه حين يستجيب لها طيعا في يد القدر،يعمل ويرجو ويطمع ويخاف،ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل،وهو راض قرير..إنه الدخول في السلم من بابه

الواسع..فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله.وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان! إن الإذعان الواثق والرجاء الهادئ والسعي المطمئن..هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة..وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط.في يسر وفي هوادة وفي رخاء.يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال.فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال.

وإن هذا الإيحاء الذي يحمله ذلك النص القرآني،لا يقف عند حد القتال،فالقتال ليس إلا مثلا لما تكرهه النفس،ويكون من ورائه الخير..إن هذا الإيحاء ينطلق في حياة المؤمن كلها.ويلقي ظلاله على أحداث الحياة جميعها..إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر..لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر يطلبون عير قريش وتجارتها،ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم الله إياها هي فئة العير والتجارة.لا فئة الحامية المقاتلة من قريش.ولكن الله جعل القافلة تفلت،ولقاهم المقاتلة من قريش! وكان النصر الذي دوّى في الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام.فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين!

وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيـــار الله لهـــم؟ والله يعلم والناس لا يعلمون! ولقد نسي فتى موسى ما كانا قد أعـــداه لطعامهما – وهو الحوت – فتسرب في البحر عند الصخرة.«فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتنا غَـــداءَنا لَقَـــدْ لَقينـــا مِـــنْ سَـــفَرِنا هـــذا نَصَباً.قالَ:أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسيتُ الْحُوتَ،وَمـــا أَنْسانيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُـــرَهُ وَاتَّخَـــذَ سَـــبيلَهُ فِـــي الْبَحْـــرِ عَجَباً..قالَ:ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً:فَوَجَـــدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا..»..وكان هذا هو الذي خرج له موسى.ولـــو لم يقع حادث الحوت ما ارتدا.ولفاتهما ما خرجا لأجله في الرحلـــة كلها! وكل إنسان – في تجاربه الخاصة – يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهـــات كـــثيرة كـــان مـــن ورائهـــا الخـــير العميم.ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظـــيم.وكـــم مـــن مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ثم تبين لـــه بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوّت عليه هـــذا المطلـــوب في حينه.وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها.ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير مـــا لم ينشـــئه الرخاء الطويل.

إن الإنسان لا يعلم.والله وحده يعلم.فماذا على الإنسان لو يستسلم؟ إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية.لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء،بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف..[٩]

لقد قضت حكمة الله أن يجعل هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار للناس،يذوق فيها بعضهم بأس بعض،وفى هذا الاحتكاك الواقع بينهم،تظهر أحوالهم وتنكشف أمورهم،وتعرف معادنهم،ولولا ذلك لكانوا شيئا واحدا..

لا مؤمن ولا كافر،ولا طيب ولا خبيث،ولا محسن ولا مسيء وقوله تعالى:«ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» هو من مقتضيات هذه الحكمة التي كان من آثارها هذا الاحتكاك الذي يدور بين المسلمين والكافرين،والذي ابتلى فيه المؤمنون بما أصيبوا فى أنفسهم وأهليهم.،فليس الإسلام هو كلمة يقولها الإنسان ليكون مسلما،وإنما هو كلمة وراءها عمل،ووراء العمل تبعات كثيرة،وأعباء ثقال،ولولا ذلك لكان مدخل الإيمان سهلا،لا ثمن له،يستوى فيه من يعمل ومن لا يعمل.،بل إنه لا يجد أحد ما

[٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤٦١)

يدفعه إلى العمل وبذل الجهد،إذ كان الأمر على تلك الصفة،وفى قوله تعالى:«عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ» التفات للمؤمنين واستحضار لهم،ليكونوا فى مواجهة هذا الحكم،وليؤخذ إقرارهم به،وما عليه المؤمنون هو العافية التي كانوا فيها قبل أن يبتلوا بلقاء الكافرين وجهادهم.

وقوله تعالى:«حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» أي حتى يقع هذا الصدام بين المؤمنين والكافرين،وحتى تنكشف أحوالهم،ويعرف الصابرون وغير الصابرين،ومن كان إيمانهم بالله خالصا صادقا،ومن كان إيمانهم على نفاق ودخل.،وعلم الله سبحانه- علم شامل،محيط بما وقع وما لم يقع،فى جميع صوره وأحواله.،وعلمه هنا،الذي يميز به الخبيث من الطيب ليس علما مستحدثا،وإنما هو علم قديم يندرج تحته هذا الحال الذي يكون عليه المؤمنون وهم فى هذا الامتحان الذي يؤدونه بين يدى الله..

وعلى هذا ينبغى أن يفسّر ويفهم ما ورد فى القرآن من علم الله الذي يبدو وكأنه معلق بوقوع الأحداث.،مثل قوله تعالى:«وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا» (٦٥- ٦٦:آل عمران) ومثل قوله سبحانه:«أَمْ

حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» (١٤٢:آل عمران) .،ونحو هذا..

فعلم الله محيط بكل شىء،وكل ما هو فى علم واقع تحـــت هـــذا العلم،فى جميع أحواله المتلبس بها.،فالله سبحانه يعلم أزلا أن هـــذا الإنسان- مثلا- سيولد من أبوين،هما فلان وفلان.،فى بلد كذا،فى زمن كذا.،وقبل أن يولد هذا الإنسان هو فى علم الله،وبعد أن ولد هو فى علم الله.،ولكن علم الله به قبل أن تحمل به أمـــه،وقبل أن يولد فى المكان والزمان الواقعين فى علم الله- يكون المعلـــوم فيـــه على صور خاصة وصفات خاصة،فإذا ولد،كان المعلوم فى علم الله على صورة غير الصورة السابقة،وعلى صفات غير تلك الصـــفات التي كان عليها قبل أن يولد! .وهكذا تـــتغير ذوات المعلومـــات وصفاتها،وعلم الله محيط بها فى جميع أشكالها وأحوالها،فلا يتغيّر ولا يتبدّل.

قوله تعالى:«وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ» معطوف علـــى قوله تعالى:«ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى مـــا أَنْـــتُمْ عَلَيْـــهِ» ..والربط بين الحكمين لازم،لأن عدم اطـــلاع المـــؤمنين علـــى الغيب،وما أراد الله لهم وكتب عليهم،يقتضى أن يؤمروا وأن ينهوا وأن يدعوا إلى الامتحان والابتلاء والجهاد فى سبيل الله..

ولو كان الغيب مكشوفا للناس لما كان ثمّة داعية إلى أمر أو نهى،فكلّ يعرف مصيره الذي هو صائر إليه.،ولو عرف الناس مصائرهم مقدما،وانكشف لهم مستقبلهم خطوة خطوة،لما احتملت طبيعتهم البشرية هذا الموقف الذي يرى فيه الإنسان وجوده كله من مبدئه إلى نهايته،ولكانت فتنة فى الأرض وفساد كبير..

ففى حجب المستقبل عنّا رحمة بنا،وإحسان إلينا،واستدعاء لوجودنا كلّه لمواجهة المجهول،ومحاولة كشفه واستخراج ما فى أطوائه،من خير وشر،وحلو ومرّ.،فهو على أي حال ثمرة مجهود،وحصاد معركة!! وانظر.،لو أن إنسانا ما عرف عن يقين من سجّل القدر أنه فى يوم كذا،فى ساعة كذا،ستصدمه سيارة تقضى عليه،أو تشبّ فيه نار فتلتهمه،أو أن أحد أبنائه سيحدث له حادث أليم..ماذا تكون حالة هذا الإنسان،منذ أن يطلع على هذا الغيب إلى أن يقع؟ هل يهنؤه طعام،أو يسوغ له شراب،أو يهدأ له قلب أو يستريح له بال؟ إنه فى همّ دائم،وكرب كارب،وعذاب أليم؟!

وأكثر من هذا.،لو أن هذا الإنسان اطلع الغيب فرأى- وهو الفقير المعدم- أنه بعد كذا من السنين سينال الغنى الواسع والثراء

العريض،وأنه سيشبع من جوع،ويكتسى مـــن عرى،وينـــال مـــا يشتهى من متع الدنيا،بعد هذا الحرمان الطويل.،ماذا تراه فى يومه هذا،وهو ينتظر ذلك اليوم الموعود؟

إنه يعيش تلك السنين الفاصلة بينه وبين هذا اليوم،فى عذاب،دونه كل عذاب.،إنه يعدّ الأيام لحظة لحظة،ويدفع مسيرة،الزمن بكل ما فى كيانه من قوى ظاهرة وباطنه.،والزمن قائم فى وجهه،جاثم على صدره،كأنه جبال الدنيا كلها مجتمعة عليه.،إنه يودّ أن ينام نومـــة أهل الكهف فلا يستيقظ إلا على يومه الموعود.،ولكن أنّـــى لـــه ذلك،وهو مشدود إلى الحياة،مقيد بقيود الزمن الثقيلة العاتية؟

من رحمة الله علينا إذن كان هذا الذي صنعه الله بنا،فحجب عنّـــا ما أراده لنا،وما قضاه علينا،فنعمل بإرادة،ونمضى بعزم،ونعيش مع أمل..

فقوله تعالى:«وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ» دعوة للمؤمنين إلى العمل حسب ما يأمرهم الله به،وبين تلك الأوامر الجهـــاد فى سبيل الله،والثبات فى وجه العدوّ،والعمل علـــى انتـــزاع النصـــر منه.،ذلك هو المطلوب من المؤمنين فى مثل هذا الموقف.،أما مـــا يؤول إليه الأمر،وما يسفر عنه القتال،فذلك علمه عند الله.،وعلى

المؤمنين أن يرضوا بما يقع،أيّا كان،بعد أن امتثلوا أمر الله،وأعطـــوه كل جهدهم.

يقول جعفر الصادق رضى الله عنه لزرارة:«يا زرارة.،أعطيك جملة فى القضاء والقدر؟ قال:نعم،جعلت فداك،قال:«إذا كـــان يـــوم القيامة وجمع الله الخلائق،سألهم عما عهد إليهم،و لم يسألهم عمـــا قضى عليهم» ..

وهذه كلمة فيها مقطع القول فى القضاء والقدر،وعلى من يحتجون بالقضاء والقدر.،إنهم مطالبون بما كلّفوا به،وغير مطالبين بما قدّره الله عليهم.،وقوله تعالى:«وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشـــاءُ» استدراك فيه معنى الاستثناء من الحكـــم الـــذي تضـــمنه قولـــه تعالى:«وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْـــبِ» .،إذ أن رســـل الله الذين يصطفيهم الله لحمل رسالاته إلى عباده،هم ممن أظهرهم الله على بعض ما فى الغيب،وأطلعهم على لمحات منه،ليروا على ضوئها طريقهم الذين يقودون فيه عباد الله إلى الهدى والخير.،وهـــذا مـــا يشير إليه قوله تعالى:«عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـــهِ رَصَـــداً» (٢٦- ٢٧:الجن) ومن جهة أخرى.،فإن الرّسول- وإن لم يطلـــع على شىء من الغيب.

فإنه أشبه بمن اطلع على الغيب فيما يتعلق بالدعوة التي يحملها،والرسالة التي يقوم بتبليغها.،إنها دعوة خير،ورسالة نور وهدى.،وإن السعادة فى الدنيا والآخرة لمن استجاب لدعوته وعمل بها،وإن النّصر والتأييد من الله لمن آمن بالله وجاهد فى سبيله.،هذه حقائق لا تقبل الشك،ووعود محققة كأنها واقعة وإن لم تكن قد وقعت،فهى فى مضمونها من أبناء الغيب،يراها رسل الله والمؤمنون بالله،رأى العين،ويستيقنونها يقين الواقع فى أيديهم..ففى قوله تعالى:«كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٢١:المجادلة) وفى قوله: كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (٤٧:الروم) وفى قوله سبحانه:«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (٥١:غافر) وفى قوله سبحانه:(أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ» (١٢٤:آل عمران) .وفى قوله جل شأنه:«قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ» (١٥:التوبة) فى هذه الآيات وكثير غيرها يرى رسول الله ويرى المؤمنون معه واقع هذه الوعود ماثلا بين أيديهم،وكأنهم قد اطلعوا الغيب وعاينوا ما سيكون قبل أن يكون! لما نزل قوله تعالى «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (٤٥:القمر)

استيقن المسلمون أن جمع الكافرين سيهزم بأيديهم وسيولّى الدبر.،هذا ما لم يكن يشكّ فيه مؤمن،حتى لكأنه يراه رأى العين،ولكن الرؤية لم تكن كاملة،حيث لم ينكشف للمسلمين هذا اليوم الذي سيتحقق فيه هذا الوعد الذي وعدهم الله إياه.،فلما كان يوم بدر انكشف ما كان مستورا،ورأى المسلمون الجمع المنهزم،وفى هذا كان يقول عمر بن الخطاب:«ما كنت أدرى أي جمع هذا الذي سيهزم حتى رأيت جمع قريش يوم بدر،وهم منهزمون يولّون الأدبار» .

وقوله تعالى:«فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» دعوة يستجيب لها كل ذى عقل ووعى،حيث كانت تلك الدعوة من عند الله،وكان حاملوها رسلا من عند الله،وكانت مضامينها حقّا مطلقا،ووعودها واقعا محققا،لأنها من أبناء الغيب وقد أطلع الله عليها رسله والمؤمنين به،فيما حملت آياته إليهم من أمر ونهى،ومن خبر او وعد! وليس الإيمان وحده مجردا من العمل هو الذي يعطى الثمرة المرجوة من الإيمان.

إذ لا بد من أن يصحب الإيمان عمل يدعو إليه الإيمان،ويرسم حدوده،وثمرة هذا العمل هى التقوى،التي يحقق بها المؤمن حقيقة

الإيمان..وبهذا يدرج فى سلك المؤمنين،ويحظى مـــن الله بـــالجزاء الأوفى،والأجر العظيم.[10]



[10] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٥٠)

## المبحث الرابع

## حكم التخلف عن الجهاد أو تركه

قال الإمام ابن حجر:تَرْكُ الْجِهَادِ عِنْدَ تَعَيُّنِه بِأَنْ دَخَلَ الْحَرْبِيُّـــونَ دَارَ الْإِسْلَامِ أَوْ أَخَذُوا مُسْلِمًا وَأَمْكَنَ تَخْلِيصُهُ مِنْهُمْ،وَتَرْكُ النَّـــاسِ الْجِهَادَ مِنْ أَصْلِه،وَتَرْكُ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ تَحْصِينَ ثُغُورِهِمْ بِحَيْثُ يُخَافُ عَلَيْهَا مِنْ اسْتِيلَاءِ الْكُفَّارِ بِسَبَبِ تَرْكِ ذَلِكَ التَّحْصِينِ[11].

إن التجمع على آصرة العقيدة وحـــدها هـــو قاعـــدة الحركـــة الإسلامية،فهو أصل من أصول الاعتقاد والتصور كما أنه أصل من أصول الحركة والانطلاق،وهذا ما قررته السورة الحاسمة وكررتـــه أيضا ..ولما كانت تلك طبيعة البيعة،كان التخلف عـــن الجهـــاد للقادرين – أيا كانت الأسباب – أمرا مستنكرا عظيما وكان مـــا بدا في الغزوة من التردد والتخلف ظاهرة لا بد من تتبعها والتركيز عليها ..[12]

---

[11] – الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٢٦٩) ونضرة النعيم في مكارم أخلاق الرســـول الكريم – ﷺ–دار الوسيلة للنشر والتوزيع،جدة (٩/ ٤١٤٦)

[12] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٤٣)

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع،فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقة الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد،بلا حرج ولا عقاب:«لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ،وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ،وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ،وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ،وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً» ..[13]



[13] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٤٩)

## المبحث الخامس

## الآيات الواردة في «التخلف عن الجهاد»

**١- تقاعس المنافقين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ:**

قال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) } [آل عمران]

الشَّدَائِدُ تُظهِرُ الْمُنَافِقِينَ الذينَ تَبَطَّنُوا بالكُفْرِ،وَأَظْهَرُوا الإِيمَانَ،مِنْ جَمَاعَةِ ابْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ،الذينَ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ،فَلَحِقَ بِهِمْ رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُونَهُمْ لِلْعَوْدَةِ إِلَى الصَّفِّ،وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى القِتَالِ وَمُسَاعَدَةِ الْمُسْلِمِينَ،وَإِكْثَارِ عَدَدِهِمْ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ (أو ادْفَعُوا)،فَرَدُّوا مُتَعَلِّلِينَ:لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ حَرْباً لاتَّبَعْنَاكُمْ،وَلَكِنَّنَا فِي قُلُوبِهِمْ يَعْتَقِدُونَ غَيْرَهُ،وَهُمْ حِينَما قَالُوا هَذَا القَوْلَ كَانُوا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أقْرَبَ لِلْكُفْرِ مِنْهُمْ

إِلَى الإِيمَان،وَاللهُ أعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ فِي قُلُوبِهِمْ وَفِي نُفُوسِهِمْ مِـــنَ الكُفْرِ وَالكَيْد لِلْمُسْلمينَ،وَسَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيه فِي الدُّنْيا وَالآخِرَة.
وَهَؤُلاءِ المُنَافِقُونَ الذين قَعَدُوا عَنِ الجِهَاد،هُمُ الذينَ قَـــالُوا عَـــنْ إِخْوَانِهِم الذينَ قُتلُوا فِي المَعْرَكَـــة:لَـــوْ سَـــمعُوا مَشُـــورَتَنَا فِـــي القُعُود،وَعَدَمِ الخُرُوجِ لَمَا قُتلُوا مَعَ مَنْ قُتلَ.وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَـــيهِمْ مُسْتَنْكِراً قَوْلَهُمْ هَذَا:قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ:لَوْ كَانَ القُعُودُ يَسْـــلَمُ بِـــهِ الشَّخْصُ مِنَ القَتْلِ وَالمَوْت،فَيَنْبَغِي عَلَيْكُمْ إلاَّ تَمُوتُوا،وَلَكِنَّ المَوْتَ آت لاَ بُدَّ منْهُ،فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِـــي قَوْلِكُمْ.[14]

وليعلم المنافقين الذين كشف الله ما في قلوبهم حين قال المؤمنـــون لهم:تعالوا قاتلوا معنا في سبيل الله،أو كونوا عونًا لنـــا بتكـــثيركم سوادنا،فقالوا:لو نعلم أنكم تقاتلون أحدًا لكنا معكم علـــيهم،هم للكفر في هذا اليوم أقرب منهم للإيمان؛لأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم،والله أعلم بما يُخفون في صدورهم،هؤلاء المنافقون هم الذين قعدوا وقالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مـــع المســـلمين في حربهم المشركين يوم «أُحد»:لو أطاعَنا هؤلاء ما قتلوا،قل لهـــم – أيها الرسول–:فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صـــادقين في

[14] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٦٠،بترقيم الشاملة آليا)

دعواكم أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا،وأنكم قد نجوتم منه بقعـــودكم عن القتال.[15]

---

**٢- لا يستأذن في ترك الجهاد في سبيل الله من آمن بالله واليوم الآخر :**

قال تعالى:{ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِـــنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُـــمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَـــا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِـــأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّـــا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)} [التوبة]

---

[15] - التفسير الميسر (١/ ٧٢)

يُوَبِّخُ اللهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ الذينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ،مُعْتَذِرِينَ بِأَنَّهُمْ ذَوُو أَعْـذَارٍ،وَلَمْ يَكُونُـوا فِـي الحَقِيقَـةِ كَذَلِكَ،فَقَالَ:لَوْ كَانَ الأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِغَنِيمَةٍ قَرِيبَةٍ (عَرَضاً قَرِيبـاً)،أَوْ سَفَرٍ قَرِيبٍ لاَ مَشَقَّةَ فِيهِ (سَفَراً قَاصِداً) لاَتَّبَعُوا رَسُولَ اللهِ،وَلَكِـنَّ المَسَافَةَ بَيْنَ الشَّامِ وَالمَدِينَةِ (الشُّقَّةُ) قَدْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمْ،وَيُخْبِرُ اللهُ نَبِيَّهُ أَنَّهُمْ سَيَحْلِفُونَ لَهُ بِاللهِ،بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنَ الغَزْوَةِ،أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ تَكُـنْ لَهُمْ أَعْذَارٌ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الخُرُوجِ مَعَهُ لَخَرَجُوا،وَسَيُهْلِكُونَ أَنْفُسَـهُمْ بِالأَيْمَانِ وَالأَعْذَارِ لِيُرْضُوهُ،إِذْ أَنَّهُمْ بِهَذا النِّفَاقِ وَالكَذِبِ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ،وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي حَلْفِهِمْ،وَفِي قَـوْلِهِمْ:(لَـوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ) وَلَنْ يَرْضَى اللهُ عَنْهُمْ.

لَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْكَ،يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ،فِيمَا أَدَّى إِلَيْهِ اجْتِهَـادُكَ مِـنَ الإِذْنِ لَهُمْ بِالْقُعُودِ حِـينَ اسْـتَأْذَنُوكَ،فَهَلاَّ تَرَيَّثْـتَ فِـي الإِذْنِ لَهُمْ،وَتَوَقَّفْتَ عَنْهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ أَمْرُهُمْ،وَيَنْجَلِيَ وَضْعُهُمْ،فَتَعْرِفَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ وَالكَاذِبِينَ فِي اعْتِذَارِهِمْ،فَتُعَامِلَ كُلاًّ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلَ بِهِ؟

لاَ يَسْتَأْذِنُكَ،فِي القُعُودِ عَنِ الجِهَادِ،أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ،لأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الجِهَادَ قُرْبَةً إِلَى اللهِ،وَإِذَا نَدَبَهُمُ النَّبِيُّ إِلَيْهِ بَادَرُوا مُمْتَثِلِينَ،وَاللهُ

يَعْلَمُ مَنْ هُمُ الْمُتَّقُونَ الذينَ يَخْشَوْنَ اللهَ،وَيَطْلُبُونَ مَرْضَاته،وَيُعدُّونَ لِلْجِهَاد عُدَّتَهُ.

وَلَكنَّ الذينَ يَسْتَأْذنُونَ النَّبيَّ ﷺ،في القُعُود عَنِ الجِهَاد،وَلاَ عُـذْرَ لَهُمْ،هُمُ الَّذينَ لاَ يُؤْمنُونَ باللهِ وَلاَ باليَوْمِ الآخر،وَلاَ يَرْجُونَ ثَوَابَ اللهِ في الدَّارِ الآخرَة عَلَى أَعْمَالهِمْ وَإِنْفَاقهم الْمَالَ فيمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ الإِسْلاَمُ،وَقَدْ شَكَّتْ قُلُوبُهُمْ في صحَّة مَا جئْتَهُمْ بِه،فَهُمْ يَتَحَيَّرُونَ،وَيَتَرَدَّدُونَ مُتَشَكِّكينَ.

وَلَوْ أَنَّهُم أَرَادُوا الخُرُوجَ مَعَكَ إِلَى الجِهَاد،وَصَحَّتْ نِيَّتُهُمْ للْخُرُوجِ مَعَكَ،لَكَانُوا تَأَهَّبُوا لَهُ،وَأَعَدُّوا الحَرْبَ وَالسَّفَر،وَلَكنَّ اللهَ كَـرِهَ خُرُوجَهُم مَعَكَ،فَثَبَّطَهُمْ،وَثَنَى عَزَائمَهُمْ عَنْ ذَلكَ،وَقيلَ لَهُمْ اقْعُدُوا مَعَ القَاعدينَ منَ النِّسَاء وَالأَطْفَال وَالْمَرْضَى وَالْعَجَزَة وَالشُّيُوخ.

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى في هَذه الآيَة أَسْبَابَ كَرَاهيَته لخُـرُوجِ هَـؤُلاَءِ الْمُنَافقينَ إِلَى الجِهَاد مَعَ رَسُوله ﷺ،فَيَقُولُ:لَوْ أَنَّهُمْ خَرَجُـوا مَـعَ الْمُسْلمينَ لَزَادُوهُمُ اضْطرَاباً وَضَـعْفاً (خَبَـالاً) لأَنَّهُـمْ جُبَنَـاءُ مَخْذُولُونَ،وَلأَخذُوا بالسَّعْي بَيْنَكُمْ في الدَّسِّ وَالنَّميمَـة وَإِثَـارَة الْفتْنَة،وَيُوجَدُ بَيْنَ الْمُسْلمينَ مَنْ يَتَأَثَّرُ بهِمْ،وَيَسْتَمعُ إِلَى قَـوْلهِمْ،منْ ضعَاف الإِيمَان،وَضعَاف العَزَائم،فَيُؤَدِّي ذَلكَ إِلَى وُقُوعِ الشَّرِّ بَيْنَ

الْمُؤْمِنِينَ،وَاللهُ يَعْلَمُ الظَّالِمِينَ،وَمَا يُبَيِّتُونَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ لَوْ خَرَجُوا مَعَهُمْ إِلَى الغَزَاة.[16]

وبَّخ الله جلَّ جلاله جماعة من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف عن غزوة (تبوك) مبينًا أنه لو كان خروجهم إلى غنيمة قريبة سهلة المنال لاتبعوك،ولكن لما دعوا إلى قتال الروم في أطراف بلاد (الشام) في وقت الحر تخاذلوا،وتخلفوا،وسيعتذرون لتخلفهم عن الخروج حالفين بأنهم لا يستطيعون ذلك،يهلكون أنفسهم بالكذب والنفاق،والله يعلم إنهم لكاذبون فيما يبدون لك من الأعذار،عفا الله عنك -أيها النبي- عمَّا وقع منك مِن تَرْك الأولى والأكمل،وهو إذنك للمنافقين في القعود عن الجهاد،لأي سبب أَذِنْتَ لهؤلاء بالتخلف عن الغزوة،حتى يظهر لك الذين صدقوا في اعتذارهم وتعلم الكاذبين منهم في ذلك؟

ليس من شأن المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر أن يستأذنوك - أيها النبي- في التخلف عن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال،وإنما هذا من شأن المنافقين،والله عليم بمن خافه فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه.

---

[16] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٧٨،بترقيم الشاملة آليا)

إنما يطلب الإذن للتخلف عن الجهاد الذين لا يصدِّقون بـــالله ولا باليوم الآخر،ولا يعملون صالحًا،وشكَّتْ قلوبهم في صحة ما جئت به -أيها النبي- من الإسلام وشرائعه،فهم في شكهم يتحيَّرون.

ولو أراد المنافقون الخروج معك -أيها النبي- إلى الجهاد لتأهَّبوا له بالزاد والراحلة،ولكن الله كره خروجهم فَثَقُلَ علـــيهم الخـــروج قضاء وقدرًا،وإن كان أمرهم به شرعا،وقيل لهـــم:تخلفـــوا مـــع القاعدين من المرضى والضعفاء والنساء والصبيان.

لو خرج المنافقون معكم -أيهـــا المؤمنـــون- للجهـــاد لنشـــروا الاضطراب في الصفوف والشر والفساد،ولأسرعوا السير بيـــنكم بالنميمة والبغضاء،يبغون فتنتكم بتثبيطكم عن الجهـــاد في ســـبيل الله،وفيكم -أيها المؤمنون- عيون لهم يسمعون أخباركم،وينقلونها إليهم،والله عليم بهؤلاء المنافقين الظالمين،وسيجازيهم على ذلك.[17]

---

**٣- فرح المنافقين بتخلفهم عن الجهاد في سبيل الله وأعـــذارهم الكاذبة:**

قال تعالى:{ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِـــي

---

[17] - التفسير الميسر (١/ ١٩٤)

الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا

عَلَى الَّذينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفيضُ منَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجدُوا مَا يُنْفقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) } [التوبة]

ذَمَّ اللهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ الذينَ تَخَلَّفُوا عَنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ،وَفَرِحُوا بِقُعُودِهِمْ بَعْدَ خُرُوجِه،وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَهُ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ،إِغْرَاءً لَهُمْ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْمُنْكَرِ،وَتَثْبِيطاً لِعَزَائِمِ الْمُؤْمِنِينَ:لاَ تَخْرُجُوا إِلَى الجِهَادِ فِي الحَرِّ،فَأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ:إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ الَّتِي سَيَصِيرُونَ إِلَيْهَا،هِيَ أَشَدُّ حَرّاً مِنْ قَيْظِ الصَّحْرَاءِ الذِي فَرُّوا مِنْهُ،وَلَوْ

أَنَّهُمْ كَانُوا يُدْرِكُونَ وَيَعْقِلُونَ لَمَا خَالَفُوا وَقَعَـدُوا،وَلَمَا فَرِحُـوا بِقُعُودِهِمْ.

ثُمَّ تَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ عَلَى فِعَـالِهِمْ السَّـيِّئَةِ،فَقَالَ لِنَبِيِّـهِ ﷺ:لِيَضْحَكُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ قَلِيلاً،لأَنَّ الدُّنْيَا نَفْسَهَا شَـيْءٌ قَلِيلٌ،فَإِذَا انْقَطَعَت الدُّنْيَا،وَصَارُوا إِلَى اللهِ،عَزَّ وَجَلَّ،اسْتَأْنَفُوا بُكَاءً لاَ يَنْقَطِعُ أَبَداً بِسَبَبِ مَا اكْتَسَبُوهُ مِنْ كُفْرٍ وَآثَامٍ،وَعَلَى مَا فَوَّتُـوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ فُرَصِ اكْتِسَابِ الحَسَنَاتِ،وَعَمَلِ مَا يُرْضِـي اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ.

فَإِذَا رَدَّكَ اللهُ تَعَالَى مِنْ غَزْوَتِكَ هَذِهِ إِلَى طَائِفَةٍ مِـنَ الْمُنَـافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ (وَكَانُوا،فِيمَا قِيلَ،اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً) فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ مَعَكَ إِلَى غَزْوَةٍ أُخْرَى،فَقُلْ لَهُمْ:لَنْ تَخْرُجُوا مَعِـي أَبَـداً،وَذَلِكَ عُقُوبَةٌ لَهُمْ وَتَعْزِيزٌ،وَلَنْ يَكُونَ لَكُمْ شَرَفُ صُحْبَتِي إِلَى الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ أَبَداً،لأَنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِخِزْيِ الْقُعُـودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ دُعِيتُمْ فِيهَا إِلَى الجِهَـادِ،وَأَنْتُمْ لاَ عُـذْرَ لَكُـمْ يُبَـرِّرُ هَـذَا التَّخَلُّفَ،فَاقْعُدُوا مَعَ الذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الجِهَادِ،مِنَ العَجَزَةِ وَالْمَرْضَى وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ.

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يَتَبَرَّأَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ،وَأَنْ لاَ يُصَلِّيَ عَلَـى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ،وَأَنْ لاَ يَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ دَاعِياً مُسْتَغْفِراً لَـهُ،لأَنَّهُمْ

كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ،وَمَاتُوا عَلَى كُفْرِهِمْ،وَهَذا حُكْمٌ عَامٌ فِي كُلِّ نِفَاقٍ،وَإِنْ كَانَت الآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ فِي حَادِثَةٍ مُعَيَّنَةٍ هي حَادِثَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ،وَلَمْ يُصَلِّ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مُنَافِقٍ أَبَداً.

فَلاَ يُثِرْ عَجَبَكَ مَا تَرَاهُمْ فِيهِ مِنْ وَفْرَةِ المَالِ،وَكَثْرَةِ الأَوْلاَدِ،فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ فِيمَا أَعْطَاهُمْ بِدَفْعِ الزَّكَاةِ مِنْهَا،وَفِي الإِنْفَاقِ فِي الجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ،مِمَّا يُوجِبُهُ الإِسْلاَمُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا،ثُمَّ يُمِيتُهُم اللهُ عَلَى الكُفْرِ،لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ نَكَالاً لَهُمْ،وَعَذَاباً فِي الدَّارِ الآخِرَةِ فَتَكُونَ الأَمْوَالُ وَالأَوْلاَدُ اسْتِدْرَاجاً لَهُمْ مِنَ اللهِ.

وَإِذَا أُنْزِلتَ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ فِيهَا دَعْوَةٌ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ،وَالإِخْلاَصِ فِي العَقِيدَةِ لَهُ،وَفِيهَا ذِكْرٌ لِلقِتَالِ،وَحَثٌّ عَلَى الجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،حَاوَلَ ذَوُو القُدْرَةِ عَلَى الجِهَادِ،وَالسَّعَةِ فِي الإِنْفَاقِ،أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ القِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللهُ،وَاسْتَأْذَنُوكَ فِي القُعُودِ مَعَ القَاعِدِينَ مِنَ العَجَزَةِ وَأَصْحَابَ الأَعْذَارِ.

رَضُوا لأَنْفُسِهِمْ بِالقُعُودِ،وَبِعَارِ البَقَاءِ مَعَ النِّسَاءِ المُتَخَلِّفَاتِ فِي البَلَدِ،بَعْدَ خُرُوجِ الْجَيْشِ (الْخَوَالِف)،وَقَدْ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ،وَخَتَمَ عَلَيْهَا،فَالْتَبَسَتْ عَلَيْهِمُ الأُمُورُ،وَأَصْبَحُوا لاَ

يَفْقَهُونَ،وَلاَ يَعْرِفُونَ مَا فِي الجِهَادِ مِنْ خَيْرٍ لِلنَّفْسِ وَلِلجَمَاعَـــةِ،وَلاَ مَا فِي القُعُودِ عَنِ الجِهَادِ مِنْ مَضَرَّةٍ لِلنَّفْسِ وَلِلجَمَاعَةِ،فِي الـــدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

إِذَا تَخَلَّفَ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الجِهَادِ فَإِنَّ رَسُـــولَ اللهِ ﷺ،وَالْمُــؤْمِنِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُســـهِمْ،وَهَؤُلاَءِ وَعَـــدَهُمُ اللهُ بِالخَيْرَاتِ:فِي الدُّنْيَا بِتَحْقِيقِ النَّصْرِ،وَمَحُوِ الْكُفْـــرِ،وَإِعْلاَءِ كَلِمَـــةِ اللهِ،وَالتَّمَتُّعِ بِالمَغَانِمِ،وَفِي الآخِرَةِ بِرِضَا اللهِ وَجَنَّاتِهِ.

وَقَدْ أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى لِهَؤُلاَءِ المُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،جَزَاءً لَهُمْ عَلَى إِيمَـــانِهِمْ وَإِخْلاَصِـــهِمْ فِـــي طَاعَـــةِ اللهِ وَرَسُولِهِ،جَنَّاتٍ تَجْرِي الأَنْهَارُ فِي جَنَبَاتِهَا،وَهَذَا هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ.

وَجَاءَ ذَوُو الأَعْذَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،مِنَ القَبَائِلِ الَّتِـــي تَعِـــيشُ حَـــوْلَ المَدِينَةِ،يَسْـــتَأْذِنُونَهُ فِـــي القُعُودِ،وَأَبْـــدَوْا أَعْـــذَاراً،مِنْهُمُ الصَّادِقُ،وَمِنْهُمُ الكَـــاذِبُ،وَلَمْ يَـــأْتِ آخَـــرُونَ مِمَّـــنْ قَعَـــدُوا لِيَعْتَذِرُوا،وَيُبَيِّنُوا أَسْبَابَ قُعُودِهِمْ عَنِ الجِهَادِ مَعَ الرَّسُولِ،وَسَيُصِيبُ الذِينَ قَعَدُوا مِنْهُمْ كُفْراً،وَجُرْأَةً مِنْهُمْ عَلَى اللهِ،عَذَابٌ أَلِيمٌ.

يَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ الأَعْذَارَ التِي لاَ حَرَجَ عَلَى مَنْ قَعَدَ مَعَهَا عَنِ الجِهَادِ،فَذَكَرَ مِنْهَا مَا هُوَ مُلاَزِمٌ لِبُنْيَةِ الإِنْسَانِ وَيَمْنَعُهُ مِنْ مُبَاشَرَةِ القِتَالِ،كَالضَعْفِ فِي البُنْيَـــةِ الجَسَـــدِيَّةِ،وَمِنْهَا مَـــا هُـــوَ

عَارِضٌ،كَالْمَرَضِ الذي يَمْنَعُهُ مِنَ الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ،أَوْ كَالفَقْرِ الذِي لاَ يُمَكِّنُهُ مِنَ التَّجَهُّزِ لِلْحَرْبِ،وَاقْتِنَاءِ السِّلاَحِ وَالْعُدَّةِ،وَالإِنْفَاقِ عَلَى النَّفْسِ وَالعِيَالِ خلاَلَ مُدَّةِ الجِهَادِ.

وَيَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى:أَنَّ هَؤُلاَءِ لاَ حَرَجَ عَلَيْهِمْ إِذَا قَعَدُوا وَنَصَحُوا للهِ،وَلِلرَّسُولِ وَلِلمُؤْمِنِينَ فِي حَالِ قُعُودِهِمْ،وَلَمْ يُرْجِفُوا بِالنَّاسِ،وَلَمْ يَبُثُّوا الشَّائِعَاتِ الْمُثَبِّطَةَ لِلْهِمَمِ،فَإِذَا الْتَزَمُوا بِذَلِكَ كَانُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ،وَاللهُ رَحِيمٌ بِمَنْ يَقْعُدُ وَهُوَ صَاحِبُ عُذْرٍ مَشْرُوعٍ.

جَاءَ سَبْعَةٌ مِنْ بَنِي مُقْرِنٍ مِنْ مُزِينَةَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَسَأَلُوهُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى دَابَّةٍ لِيُجَاهِدُوا مَعَهُ،وَكَانُوا أَهْلَ حَاجَةٍ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ:وَاللهِ مَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ،فَتَوَلَّوا عَنْهُ يَبْكُونَ حُزْناً عَلَى أَنَّهُمْ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَهُ لِيَذْهَبُوا مَعَ الرَّسُولِ إِلَى الجِهَادِ،فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ.

ثُمَّ رَدَّ اللهُ تَعَالَى الْمَلاَمَةَ وَجَعَلَهَا عَلَى الذينَ يَسْتَأْذِنُونَ الرَّسُولَ فِي القُعُودِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَلاَ ضَرُورَةٍ،وَهُمْ أَصِحَّاءُ أَغْنِيَاءُ،قَادِرُونَ عَلَى الإِنْفَاقِ،وَوَبَّخَهُمْ لِرِضَاهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ العَجَزَةِ وَالْمَرْضَى وَالنِّسَاءِ القَوَاعِدِ،وَقَالَ تَعَالَى إِنَّهُ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ،وَخَتَمَ عَلَيْهَا،وَأَحَاطَتْ بِهِمْ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبُهُمْ،فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا،وَلاَ سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ فِي الآخِرَةِ.

أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنَّهُ إِذَا رَجَعَ بالجَيْشِ إِلَى المَدِينَــةِ،فَإِنَّ المُنَافِقِينَ الذينَ قَعَدُوا عَنِ الجِهَادِ،وَهُمْ أَغْنِيَاءُ أَصِحَّاءُ،سَيَأْتُونَ إِلَيْــهِ مُعْتَذِرِينَ،وَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ:لاَ حَاجَةَ بِكُم لأنْ تَعْتَذِرُوا فَلَنْ نُصَدِّقَكُمْ،وَلَنْ نَثِقَ بِكُمْ،لأنَّ اللهَ أَعْلَمَنَــا بِــأَحْوَالِكُمْ وَأَخْبَارِكُمْ،وَسَيَرَى اللهُ وَرَسُولُهُ عَمَلَكُمْ فِيمَا بَعْدُ،وَهُوَ الذي سَيُبَيِّنُ حَقِيقَةَ حَالِكُمْ:إِمَّا إِصْرَارٌ عَلَى النِّفَاقِ،وَإِمَّا تَوْبَةٌ وَإِنَابَةُ إِلَى اللهِ،أَمَّــا قَوْلُكُمْ بِاللِّسَانِ فَلاَ يُعْتَدُّ بِهِ مَهْمَا أَكَّدْتُمُوهُ بِالإِيمَانِ،ثُمَّ يَتَــوَلَّى اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِخْبَارَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِها وَشَرِها،وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهَا بِمَا تَسْتَحِقُّونَ.[18]

فرح المخلفون الذين تخلفوا عــن رســول الله ﷺ بقعــودهم في (المدينة) مخالفين لرسول الله ﷺ،وكرهوا أن يجاهدوا معه بــأموالهم وأنفسهم في سبيل الله،وقــال بعضــهم لــبعض:لا تنفــروا في الحرِّ،وكانت غزوة (تبوك) في وقت شدة الحرِّ،قــل لهــم -أيهــا الرسول-:نار جهنم أشد حرًا،لو كانوا يعلمون ذلك.

فليضحك هؤلاء المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غــزوة (تبوك) قليلا في حياقم الــدنيا الفانيــة،وليبكوا كــثيرًا في نــار جهنم؛جزاءً بما كانوا يكسبون في الدنيا من النفاق والكفر.

[18] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣١٧،بترقيم الشاملة آليا)

فإنْ رَدَّك الله -أيها الرسول- مِن غزوتك إلى جماعة من المنـــافقين الثابتين على النفاق،فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى بعد غزوة (تبوك) فقل لهم:لن تخرجوا معـــي أبـــدًا في غـــزوة مـــن الغزوات،ولن تقاتلوا معي عدوًا من الأعداء؛إنكم رضيتم بالقعود أول مرة،فاقعدوا مع الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ.

ولا تصلِّ -أيها الرسول- أبدًا على أحد مات من المنافقين،ولا تقم على قبره لتدعو له؛لأنهم كفروا بالله تعالى وبرســوله ﷺ ومـــاتوا وهم فاسقون،وهذا حكم عام في كل من عُلِمَ نفاقه.

ولا تعجبك -أيها الرسول- أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم،إنمـــا يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا بمكابدتهم الشدائد في شأنها،وبموتهم على كفرهم بالله ورسوله.

وإذا أنزلت سورة على محمد صلى الله عليه و لم تأمر بالإيمان بـــالله والإخلاص له والجهاد مع رسول الله،طلب الإذن منـــك -أيهـــا الرسول- أولو اليسار من المنافقين،وقالوا:اتركنا مـــع القاعـــدين العاجزين عن الخروج.

رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم بالعار،وهو أن يقعدوا في البيـــوت مع النســـاء والصـــبيان وأصـــحاب الأعـــذار،وختم الله علـــى

قلوبهم؛بسبب نفاقهم وتخلفهم عن الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ في سبيل الله،فهم لا يفقهون ما فيه صلاحهم ورشادهم.

إنْ تخلَّف هؤلاء المنافقون عن الغزو،فقد جاهـد رسـول الله ﷺ والمؤمنون معه بأموالهم وأنفسهم،وأولئك لهم النصر والغنيمـة في الدنيا،والجنة والكرامة في الآخرة،وأولئك هم الفائزون.

أعدَّ الله لهم يوم القيامة جنات تجري مِن تحت قصورها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها أبدًا،وذلك هو الفلاح العظيم.

وجاء جماعة من أحياء العرب حول (المدينة) يعتذرون إلى رسـول الله ﷺ،ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعـدم القـدرة علـى الخروج للغزو،وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسـول الله ﷺ،سيصيب الذين كفروا من هؤلاء عذاب أليم في الدنيا بالقتـل وغيره،وفي الآخرة بالنار.

ليس على أهل الأعذار مِن الضعفاء والمرضى والفقـراء الـذين لا يملكون من المال ما يتجهزون به للخروج إثم في القعود إذا أخلصوا لله ورسوله،وعملوا بشرعه،ما على مَن أحسن ممن منعه العذر عن الجهاد مع رسول الله ﷺ،وهو ناصح لله ولرسوله من طريق يعاقب مِن قِبَلِه ويؤاخذ عليه،والله غفور للمحسنين،رحيم بهم.

وكذلك لا إثم على الذين إذا ما جاؤوك يطلبون أن تعينهم بحملهم إلى الجهاد قلت لهم:لا أجد ما أحملكم عليه من الدوابِّ،فانصرفوا عنك،وقد فاضت أعينهم دَمعًا أسفًا على ما فاتهم من شرف الجهاد وثوابه؛لأنهم لم يجدوا ما ينفقون،وما يحملهم لو خرجوا للجهاد في سبيل الله.إنما الإثم واللوم على الأغنياء الذين جاءوك -أيها الرسول- يطلبون الإذن بالتخلف،وهم المنافقون الأغنياء اختاروا لأنفسهم القعود مع النساء وأهل الأعذار،وختم الله على قلوبهم بالنفاق،فلا يدخلها إيمان،فهم لا يعلمون سوء عاقبتهم بتخلفهم عنك وتركهم الجهاد معك.يعتذر إليكم -أيها المؤمنون- هؤلاء المتخلفون عن جهاد المشركين بالأكاذيب عندما تعودون مِن جهادكم من غزوة (تبوك)،قل لهم -أيها الرسول-:لا تعتذروا لن نصدقكم فيما تقولون،قد نبأنا الله من أمركم ما حقق لدينا كذبكم،وسيرى الله عملكم ورسوله،إن كنتم تتوبون من نفاقكم،أو تقيمون عليه،وسيُظهر للناس أعمالكم في الدنيا،ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الذي لا تخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها،فيخبركم بأعمالكم كلها،ويجازيكم عليها.[١٩]

---

[١٩] - التفسير الميسر (١/ ٢٠٠)

### ٤- الثلاثة الذين خلّفوا عن غزة تبوك:

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)} وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) [التوبة]

نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ التِي كَانَتْ فِي سَنَةِ جَدْبٍ،وَوَقْتَ حَرٍّ شَدِيدٍ،وَعُسْرٍ فِي الزَّادِ وَالمَاءِ،وَقَدْ أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارَ الذِينَ اتَّبَعُوا رَسُولَ اللهِ فِي وَقْتِ عُسْرَةٍ مِنَ النَّفَقَةِ وَالظَّهْرِ وَالزَّادِ،بِالتَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ لِصِدْقِ إِيمَانِهِمْ بِاللهِ،وَلاسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ رَسُولِهِ الكَرِيمِ،بَعْدَ أَنْ كَادَتْ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنَ المُسْلِمِينَ عَنِ الحَقِّ،وَهُمُ الذِينَ تَخَلَّفُوا لِغَيْرِ عِلَّةِ النِّفَاقِ مِمَّنْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً،وَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ،لِعِظَمِ مَا نَالَهُمْ مِنَ المَشَقَّةِ وَالشِّدَّةِ فِي سَفَرِهِمْ وَغَزْوِهِمْ،ثُمَّ رَزَقَهُمُ اللهُ الإِنَابَةَ إِلَيْهِ،وَالرُّجُوعَ وَالثَّبَاتَ عَلَى دِينِهِ،فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُ تَعَالَى رَؤُوفٌ رَحِيمٌ بِهِمْ.

الثَّلاَثَةُ هُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ،وَمَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ،وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِي،وَهَؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوك،وَاعْتَرَفُوا لِلرَّسُولِ

ﷺ أَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَعْذَارٌ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" قُومُوا حَتَّى يَقْضِي اللهُ فِي أَمْرِكُمْ " وأَمْر الرَّسُولُ النَّاسَ أَنْ لاَ يُكَلِّمُوهُمْ،فَفَعَلُوا حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ عَلَى رَحْبِهَا وَسَعَتِهَا،وَضَاقَتْ أَنْفُسُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ،لِمَا كَانُوا يَشْعُرُونَ بِهِ مِنْ ضِيقِ صُدُورِهِمْ بِامْتِلاَئِهَا بِالهَمِّ وَالغَمِّ،وَلَبِثُوا فِي ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً،ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ،وَفِيهَا التَّوْبَةُ عَلَيهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ:إِنَّهُ عَطَفَ عَلَيْهِمْ،وَأَنْزَلَ قَبُولَ تَوْبَتِهِمْ لِيَتُوبُوا وَيَرْجِعُوا إِلَيْهِ،بَعْدَ أَنْ قَصَّرُوا فِي اتِّبَاعِ رَسُولِهِ إِلَى الغَزَاةِ،فَكَانَ عَاقِبَةُ صِدْقِهِمْ خَيْراً لَهُمْ،وَتَوْبَةً عَلَيْهِمْ.[20]

لقد وفَّق الله نبيه محمدا ﷺ إلى الإنابة إليه وطاعته،وتاب الله على المهاجرين الذين هجروا ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام،وتاب على أنصار رسول الله ﷺ الذين خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة (تبوك) في حرٍّ شديد،وضيق من الزاد والظَّهْر،لقد تاب الله عليهم من بعد ما كاد يَميل قلوب بعضهم عن الحق،فيميلون إلى الدَّعة والسكون،لكن الله ثبتهم وقوَّاهم وتاب عليهم،إنه بهم رؤوف رحيم،ومن رحمته بهم أنْ مَنَّ عليهم بالتوبة،وقبلَها منهم،وثبَّتهم عليها،

[20] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

وكذلك تاب الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا من الأنصار -وهـم كعب بن مالك وهلال بن أُميَّة ومُرَارة بن الربيع- تخلَّفـوا عـن رسول الله ﷺ،وحزنوا حزنًا شديدًا،حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسَعَتها غمًّا وندمًا بسبب تخلفهم،وضاقت عليهم أنفسـهم لِمَـا أصابهم من الهم،وأيقنوا أن لا ملجأ مـن الله إلا إليـه،وفَّقهم الله سبحانه وتعالى إلى الطاعة والرجوع إلى ما يرضيه سبحانه،إن الله هو التواب على عباده،الرحيم بهم.[21]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،وَكَانَ،قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ،حِينَ عَمِيَ،قَالَ:سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ،يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ،تَبُوكَ،قَالَ كَعْبٌ:لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ،غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَـدْرٍ،وَلَمْ يُعَاتِـبْ أَحَـدًا تَخَلَّـفَ عَنْهَا،إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ،حَتَّى جَمَعَ اللَّـهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ،وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ،حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ،وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِـي بِهَـا مَشْهَدَ بَدْرٍ،وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ،أَذْكَرَ فِـي النَّـاسِ مِنْهَا،كَـانَ مِـنْ خَبَرِي:أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ،فِي تِلْكَ

[21] - التفسير الميسر (١/ ٢٠٥)

الغَزَاة،وَاللَّه مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَان قَطُّ،حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الغَزْوَة،وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً [ص:٤] إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا،حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ،غَزَاهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيد،وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا،وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا،فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ،فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ،وَالمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ كَثِيرٌ،وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ،يُرِيدُ الدِّيوَانَ،قَالَ كَعْبٌ:فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ،مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّه،وَغَزَا رَسُولُ اللَّه ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ،وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ،فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ،فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا،فَأَقُولُ فِي نَفْسِي:أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ،فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ،فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ،وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا،فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ،ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ،فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ،فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا،ثُمَّ غَدَوْتُ،ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا،فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْوُ،وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ،وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ،فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ،فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ،أَحْزَنَنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ،أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ

مِنَ الضُّعَفَاءِ،وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ،فَقَالَ:وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ:«مَا فَعَلَ كَعْبٌ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،حَبَسَهُ بُرْدَاهُ،وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ،فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ:بِئْسَ مَا قُلْتَ،وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا،فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ:فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي،وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ،وَأَقُولُ:بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا،وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي،فَلَمَّا قِيلَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ،وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ،فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ،وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا،وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ،بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ،فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ،ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ،فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ،فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ،وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا،فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلاَنِيَتَهُمْ،وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ،وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ،فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ،ثُمَّ قَالَ:«تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ [ص:٥]،فَقَالَ لِي:«مَا خَلَّفَكَ،أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ»،فَقُلْتُ:بَلَى،إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا،لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ،وَلَقَدْ أُعْطِيتُ

جَدَلًا،وَلَكِنِّي وَاللَّه،لَقَدْ عَلمْتُ لَئنْ حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حَديثَ كَذبٍ تَرْضَى به عَنِّي،لَيُوشكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخطَكَ عَلَيَّ،وَلَئنْ حَدَّثْتُكَ حَديثَ صدْق،تَجدُ عَلَيَّ فيه،إِنِّي لَأَرْجُو فيه عَفْوَ اللَّه،لاَ وَاللَّه،مَا كَانَ لي منْ عُذْرٍ،وَاللَّه مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى،وَلاَ أَيْسَرَ منِّي حينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ،فَقُمْ حَتَّى يَقْضيَ اللَّهُ فيكَ»،فَقُمْتُ،وَثَارَ رجَالٌ منْ بَني سَلمَةَ فَاتَّبَعُوني،فَقَالُوا لي:وَاللَّه مَا عَلمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا،وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ بمَا اعْتَذَرَ إِلَيْه المُتَخَلِّفُونَ،قَدْ كَانَ كَافيَكَ ذَنْبَكَ اسْتغْفَارُ رَسُول اللَّه ﷺ لَكَ،فَوَاللَّه مَا زَالُوا يُؤَنِّبُوني حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسي،ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ:هَلْ لَقيَ هَذَا مَعي أَحَدٌ؟ قَالُوا:نَعَمْ،رَجُلاَن،قَالاَ مثْلَ مَا قُلْتَ،فَقيلَ لَهُمَا مثْلُ مَا قيلَ لَكَ،فَقُلْتُ:مَنْ هُمَا؟ قَالُوا:مُرَارَةُ بْنُ الرَّبيع العَمْريُّ،وَهلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقفيُّ،فَذَكَرُوا لي رَجُلَيْن صَالحَيْن،قَدْ شَهدَا بَدْرًا،فيهمَا أُسْوَةٌ،فَمَضَيْتُ حينَ ذَكَرُوهُمَا لي،وَنَهَى رَسُولُ اللَّه ﷺ المُسْلمينَ عَنْ كَلاَمنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ منْ بَيْن مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ،فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ،وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ في نَفْسي الأَرْضُ فَمَا هيَ الَّتي أَعْرفُ،فَلَبثْنَا عَلَى ذَلكَ خَمْسينَ لَيْلَةً،فَأَمَّا صَاحبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا في بُيُوتهمَا يَبْكيَان،وَأَمَّا أَنَا،فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْم

وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ،وَأَطُوفُ فِـــي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ،وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُـــوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ،فَأَقُولُ فِي نَفْسِي:هَلْ حَرَّكَ شَـــفَتَيْهِ بِـــرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ،فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ،فَإِذَا أَقْبَلْـــتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ،وَإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي،حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ،مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ،وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ،فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ،فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ،فَقُلْتُ:يَا أَبَا قَتَادَةَ،أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَـــكَتَ،فَعُدْتُ لَـــهُ فَنَشَـــدْتُهُ فَسَـــكَتَ،فَعُدْتُ لَـــهُ فَنَشَدْتُهُ،فَقَالَ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،فَفَاضَتْ عَيْنَايَ،وَتَوَلَّيْـــتُ حَتَّـــى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ،قَالَ:فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ المَدِينَةِ،إِذَا نَبَطِـــيٌّ مِـــنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ،مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ،يَقُولُ:مَنْ يَـــدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ،حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ،فَإِذَا فِيهِ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّـــهُ قَـــدْ بَلَغَنِـــي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ [ص:٦] وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِـــدَارِ هَـــوَانٍ،وَلاَ مَضْيَعَةٍ،فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ،فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَـــا:وَهَـــذَا أَيْضًـــا مِـــنَ البَلاَءِ،فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا،حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ،إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي،فَقَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ،فَقُلْتُ:أُطَلِّقُهَا؟ أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ:لاَ،بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا،وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ،فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي:الحَقِي بِأَهْلِكِ،فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ،حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ،قَالَ كَعْبٌ:فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللَّهِ:إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ،لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ،فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ:«لاَ،وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ»،قَالَتْ:إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ،وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ،مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا،فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي:لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ:وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا،وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ،حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا،فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً،وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا،فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ،قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي،وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ،سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ،أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ،قَالَ:فَخَرَرْتُ سَاجِدًا،وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ،وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ

الفَجْرِ،فَــذَهَبَ النَّــاسُ يُبَشِّــرُونَنَا،وَذَهَبَ قِبَــلَ صَــاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ،وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا،وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْــلَمَ،فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ،وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ،فَلَمَّا جَــاءَنِي الَّــذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي،نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ،فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا،بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ،وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا،وَانْطَلَقْتُ إِلَــى رَسُــولِ اللَّــهِ ﷺ،فَيَتَلَقَّــانِي النَّــاسُ فَوْجًــا فَوْجًــا،يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ،يَقُولُونَ:لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ،قَالَ كَعْبٌ:حَتَّــى دَخَلْــتُ المَسْجِدَ،فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ،فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي،وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ،وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ،قَالَ كَعْبٌ:فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَــى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَهُــوَ يَبْــرُقُ وَجْهُــهُ مِــنَ السُّرُورِ:«أَبْشِرْ بِخَيْرِ [ص:٧] يَوْمٍ مَــرَّ عَلَيْــكَ مُنْــذُ وَلَــدَتْكَ أُمُّكَ»،قَالَ:قُلْتُ:أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَمْ مِــنْ عِنْــدِ اللَّــهِ؟ قَالَ:«لاَ،بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُــرَّ اسْــتَنَارَ وَجْهُهُ،حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ،وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ،فَلَمَّا جَلَسْــتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِــنْ مَــالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»،قُلْتُ:فَإِنِّي أُمْسِــكُ سَــهْمِي الَّــذِي

بخَيْبَرَ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه،إنَّ اللَّهَ إنَّمَا نَجَّاني بالصِّدْق،وَإنَّ مِنْ تَوْبَتي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إلَّا صدْقًا،مَا بَقيتُ،فوَاللَّه مَا أَعْلَمُ أَحَدًا منَ الْمُسْلمينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ في صدْق الحَديث مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلكَ لرَسُول اللَّه ﷺ،أَحْسَنَ ممَّا أَبْلاَني،مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلكَ لرَسُول اللَّه ﷺ إلَى يَوْمي هَذَا كَذبًا،وَإنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَني اللَّهُ فيمَا بَقيتُ،وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُوله ﷺ:{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبيِّ وَالْمُهَاجرينَ وَالأَنْصَار} [التوبة:١١٧] إلَى قَوْله {وَكُونُوا مَعَ الصَّادقينَ} [التوبة:١١٩] فَوَاللَّه مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ منْ نعْمَة قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَاني للْإسْلاَم،أَعْظَمَ في نَفْسي منْ صدْقي لرَسُول اللَّه ﷺ،أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ،فَأَهْلكَ كَمَا هَلَكَ الَّذينَ كَذَبُوا،فَإنَّ اللَّهَ قَالَ للَّذينَ كَذَبُوا – حينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ – شَرَّ مَا قَالَ لأَحَد،فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{سَيَحْلفُونَ باللَّه لَكُمْ إذَا انْقَلَبْتُمْ} [التوبة:٩٥] إلَى قَوْله {فَإنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَن القَوْم الفَاسقينَ} [التوبة:٩٦]،قَالَ كَعْبٌ:وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْر أُولَئكَ الَّذينَ قَبلَ منْهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ حينَ حَلَفُوا لَهُ،فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ،وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فيه،فَبذَلكَ قَالَ اللَّهُ:{وَعَلَى الثَّلاَثَة الَّذينَ خُلِّفُوا} [التوبة:١١٨]،وَلَيْسَ الَّذي ذَكَرَ اللَّهُ ممَّا خُلِّفْنَا عَن

الغَزْوِ،إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا،وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا،عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَــذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ" [22]

---

[22] - صحيح البخاري (٦/ ٧)(٤٤١٨ ) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٠)٥٣ - (٢٧٦٩)
[ ش (ليلة العقبة) هي الليلة التي بايع رسول الله ﷺالأنصار فيها علـــى الإســـلام وأن يؤووه وينصروه وهي العقبة التي في طرف منى التي يضاف إليها جمرة العقبة وكانت بيعة العقبة مرتين في سنتين في السنة الأولى كانوا اثني عشر وفي الثانية سبعين كلـــهم مـــن الأنصار رضي الله عنهم (تواثقنا على الإسلام) أي تبايعنا عليه وتعاهدنا (وإن كانت بدر أذكر) أي أشهر عند الناس بالفضيلة (ومفازا) أي برية طويلة قليلة الماء يخاف فيها الهلاك (فجلا للمسلمين أمرهم) أي كشفه وبينه وأوضحه وعرفهم ذلك على وجهه من غـــير تورية يقال جلوت الشيء كشفته (ليتأهبوا أهبة غزوهم) أي ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم ذلك (فأخبرهم بوجههم) أي بمقصدهم (فقل رجل يريد أن يتغيب الخ) قال القاضي هكذا هو في جميع نسخ مسلم وصوابه إلا يظن أن ذلك سيخفى له بزيـــادة إلا وكذا رواه البخاري (فأنا إليها أصعر) أي أميل (وتفارط الغزو) أي تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا (مغموصا عليه في النفاق) أي متهما به (حتى بلغ تبوكا) هو في أكثر النسخ تبوكا بالنصب وكذا هو في نسخ البخاري وكأنه صرفها لإرادة الموقع دون البقعة (والنظر في عطفيه) أي جانبيه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه (مبيضا) هو لابس البياض ويقال هم المبيضة والمسودة أي لابسوا البياض والسواد (يزول به السراب) أي يتحرك وينهض والسراب هو ما يظهر للإنسان في الهواجر في البراري كأنه ماء (كن أبا خيثمـــة) قيـــل معناه أنت أبو خيثمة قال ثعلب العرب تقول كن زيدا أي أنت زيد قال القاضي عياض والأشبه عندي أن كن هنا للتحقق والوجود أي لتوجد يا هذا الشخص أبا خيثمة حقيقة وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب وهو معنى قول صاحب التحرير تقديره اللهم اجعله أبا خيثمة (لمزه المنافقون) أي عابوه واحتقروه (توجه قافلا) أي راجعا (حضرني بثي) هو أشد الحزن (أظل قادما) أي أقبل ودنا قدومه كأنه ألقـــى علـــي ظلـــه (زاح) أي زال

(فأجمعت صدقة) أي عزمت عليه يقال أجمع أمره وعلى أمره وعزم عليه بمعنى (أعطيت جدلا) أي فصاحة وقوة في الكلام وبراعة بحيث أخرج عن عهدة مــا ينســب إلي إذا أردت (ليوشكن) أي ليسرعن (تجد علي فيه) أي تغضب (إني لأرجو فيه عقبى الله) أي أن يعقبني خيرا وأن يثيبني عليه (يؤنبونني) أي يلومونني أشد اللوم (العامري) هكذا هو في جميع نسخ مسلم العامري وأنكره العلماء وقالوا هو غلط إنما صوابه العمري مــن بــني عمرو بن عوف وكذا ذكره البخاري وكذا نسبه محمد بن إسحاق وابــن عبــد الــبر وغيرهما من الأئمة قال القاضي هو الصواب (أيها الثلاثة) قال القاضــي هــو بــالرفع وموضعه نصب على الاختصاص قال سيبويه نقلا عن العرب اللهم اغفر لنا أيتها العصابة وهذا مثله (فما هي بالأرض التي أعرف) معناه تغير علي كل شيء حتى الأرض فإنهــا توحشت علي وصارت كأنها أرض لم أعرفها بتوحشها علي (فاســتكانا) أي خضــعا (أشب القوم وأجلدهم) أي أصغرهم سنا وأقواهم (حتى تسورت) معنى تسورته علوتــه وصعدت سوره وهو أعلاه (أنشدك بالله) أي أسألك بالله وأصله مــن النشــيد وهــو الصوت (نبطي من نبط أهل الشام) يقال النبط والأنباط والنبيط وهم فلاحــو العجــم (مضيعة) فيها لغتان إحداهما مضيعة والثانية مضيعة أي موضع وحال يضيع فيه حقــك (نواسك) وفي بعض النسخ نواسيك بزيادة ياء وهو صحيح أي ونحن نواسيك وقطعــه عن جواب الأمر ومعناه نشاركك فيما عندنا (فتيامَمت) هكذا هو في جميع النسخ ببلادنا وهي لغة في تيممت ومعناها قصدت (فسجرتها) أي أحرقتها وأنث الضمير لأنــه أراد معنى الكتاب وهو الصحيفة (واستلبث الوحي) أي أبطأ (وضاقت علــي الأرض بمــا رحبت) أي بما اتسعت ومعناه ضاقت علي الأرض مع أنها متسعة والرحب السعة (أوفى على سلع) أي صعده وارتفع عليه وسلع جبل بالمدينة معروف (فآذن الناس) أي أعلمهم (أتأمم) أي أقصد (فوجا فوجا) الفوج الجماعة (أن أنخلع من مالي) أي أخــرج منــه وأتصدق به (أبلاه الله) أي أنعم عليه والبلاء والإبلاء يكون في الخير والشر لكن إذا أطلق كان للشر غالبا فإذا أريد الخير قيد كما قيد هنا فقال أحسن مما أبــلاني (أن لا أكــون كذبته) هكذا هو في جميع نسخ مسلم وكثير من روايات البخاري قال العلماء لفظة لا

هذه هي قصة الثلاثة الذين خلفوا – كما رواها أحدهم كعب بن مالك – وفي كل فقرة منها عبرة،وفيها كلها صورة بارزة الخطوط عن القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامي،ومتانة بنائها،وصفاء عناصرها،ونصاعة تصورها لمعنى الجماعة،ولتكاليف الدعوة،ولقيمة الأوامر،ولضرورة الطاعة.

فهذا كعب بن مالك – وزميلاه – يتخلفون عن ركب رسول الله – ﷺ – في ساعة العسرة.

يدركهم الضعف البشري الذي يحبب إليهم الظل والراحة،فيؤثرونهما على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب،ولكن كعبا ما يلبث بعد خروج رسول الله – ﷺ – أن يحس ما فعل،يشعره به كل ما حوله:«فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله – ﷺ – يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق،أو رجلا ممن عذر الله» – يعني بمن عذر الله الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون.

فالعسرة لم تقعد بالمسلمين عن تلبية دعوة رسول الله – ﷺ – إلى الغزوة البعيدة الشقة، لم يقعد إلا المطعون فيهم المظنون بهم

---

في قوله أن لا أكون زائدة ومعناه أن أكون كذبته كقوله تعالى ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك (وإرجاؤه أمرنا) أي تأخيره]

النفاق،وإلا العاجزون الذين عذرهم الله،أمـــا القاعـــدة الصـــلبة للجماعة المسلمة فكانت أقوى روحا من العسرة،وأصلب عـــودا من الشدة ..

هذه واحدة.

والثانية هي التقوى،التقوى التي تلجـــئ المخطـــئ إلى الصـــدق والإقرار،والأمر بعد ذلك لله:«فقلت:

يا رسول الله،والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر،لقد أعطيت جـــدلا،ولكني والله لقـــد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك علي.

ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى من الله،والله ما كان لي عذر،والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حـــين تخلفت عنك».

فالله حاضر في ضمير المؤمن المخطئ،ومع حرصه البالغ على رضى رسول الله – ﷺ – وهذا الرضى يومئذ يعز ويذل ويرفع ويخفض ويترك المسلم مرموقا بالأنظار أو مهملا لا ينظر إليه إنسان – مع هذا فإن مراقبة الله أقوى وتقوى الله أعمق والرجاء في الله أوثق.

«ونهى رسول الله - ﷺ - الناس عن كلامنا،أيها الثلاثة،من بـين من تخلف عنه،فاجتنبنا الناس - أو قال:تغيروا لنا - حتى تنكـرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف،فلبثنا على ذلك خمسين ليلة،فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم،فكنت أخرج فأشهد الصـلاة مـع المسلمين،وأطوف بالأسواق،فلا يكلمني أحد،وآتي رسـول الله - ﷺ - فأسلم عليه في مجلسه بعد الصلاة،وأقول في نفسي:هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه وأسـارقه النظر،فـإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي،فإذا التفت نحوه أعرض عني،حـتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلمت عليه فو الله ما رد علي السلام،فقلت له:يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى،هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال:فسكت.

قال:فعدت فنشدته فسـكت،فعدت فنشـدته،قال:الله ورسـوله أعلم،ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار» ..

هكذا كان الضبط،وهكذا كانت الطاعة في الجماعة المسـلمة - على الرغم من كل ما وقع من خلخلة بعد الفتح ومـن بلبلـة في ساعة العسرة - .،نهى رسول الله - ﷺ - عـن كلامنـا أيهـا

الثلاثة،فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة،ولا مخلوق يلقى كعبا بأنس،ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطي،حتى ابن عمه وأحب الناس إليه،وقـــد تسور عليه داره،لا يرد عليه السلام،ولا يجيبه عـــن ســـؤال،فإذا أجاب بعد الإلحاح لم يطمئن لهفته و لم يسكن قلقه،إنما قـــال:«الله ورسوله أعلم».

وكعب في لهفته – وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض الـــتي كان يعرف – يتلمس حركة من بين شـــفتي الرســـول – ﷺ – ويخالسه النظر لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها،ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة،و لم يكتب له الذبول والجفاف! وبينما هو طريد شريد،لا يلقي إليه مخلوق مـــن قومه بكلمة – ولو على سبيل الصدقة – يجيئه من قبل ملك غسان كتاب يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه .،ولكنه بحركة واحـــدة يعرض عن هذا كله،وما يزيـــد علـــى أن يلقـــي بالكتـــاب إلى النار،ويعد هذا بقية من البلاء،ويصبر على الابتلاء.

وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجه،لتدعه فريدا طريدا مـــن الأنـــس كله،مخلفا بين الأرض والسماء،فيخجل أن يراجع رسول الله – ﷺ – في امرأته،لأنه لا يدري كيف يكون الجواب.

هذه صفحة،والصفحة الأخرى هـــي صـــفحة البشرى،بشـــرى القبول،بشرى العودة إلى الصف،بشرى التوبة من الذنب،بشـــرى البعث والعودة إلى الحياة .،«فبينا أنا جالس على الحال التي ذكـــر الله منا،قد ضـــاقت علـــي نفسي،وضـــاقت علـــي الأرض بمـــا رحبت،سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته:يـــا كعب بن مالك أبشر،فخررت ساجدا وعرفـــت أن قـــد جـــاء الفرج،فآذن رسول الله – ﷺ – بتوبة الله علينـــا حـــين صـــلى الفجر،فـــذهب النـــاس يبشـــروننا وذهـــب قبـــل صـــاحبيّ مبشرون،وركض إلي رجل فرسا،وسعى ساع من أســـلم قبلـــي وأوفى على الجبل،فكان الصوت أسرع من الفرس،فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته،والله ما أملك غيرهما يومئذ،فاستعرت ثوبين فلبستهما،فانطلقت أؤم رسول الله – ﷺ – يتلقـــاني النـــاس فوجـــا بعـــد فـــوج يهنئـــونني بالتوبة،ويقولون:ليهنك توبة الله عليك،حتى دخلت المسجد فـــإذا رسول الله – ﷺ – جالس في المسجد وحولـــه الناس،فقـــام إلي طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحني وهنأني،والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره،قال:فكان كعب لا ينساها لطلحة» ..

هكذا كانت الأحداث تقدر وتقوّم في هذه الجماعة،وهكذا كانت توبة مقبولة تستقبل وتعظم كانت بشرى يركض بها الفـــارس إلى صاحبها،ويهتف بها راكب الجبل ليكون أسرع بشـــارة،وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلا لا ينساه الطريد الذي رد إلى الجماعة واتصلت بها وشائجه،فهو في يوم كما قال عنه رسول الله – ﷺ –:«أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قالها – ﷺ – وهو يبرق وجهه من السرور،كما قال كعب،فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل الله توبة ثلاثـــة مـــن أصحابه وردهم مكرمين إلى جماعته.

تلك هي قصة الثلاثة الذين خلفوا ثم تاب الله عليهم،وهذه هـــي بعض لمحات مـــن دلالتـــها الواضـــحة علـــى حيـــاة الجماعـــة الإسلامية،وعلى القيم التي كانت تعيش بها.

والقصة كما رواها أحـــد أصـــحابها،تقرب إلى نفوســـنا معـــنى الآية:«حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ،وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ،وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ .،» ..

«ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ» .،فما الأرض؟ إن هـــي إلا بأهلها،إن هي إلا بالقيم السائدة فيهـــا،إن هـــي إلا بالوشـــائج والعلاقات بين أصحابها،فالتعبير صادق في مدلوله الواقعي فـــوق

صدقه في جماله الفني،الذي يرسم هـــذه الأرض تضـــيق بالثلاثـــة المخلفين،وتتقاصر أطرافها،وتنكمش رقعتها،فهم منها في حـــرج وضيق.

«وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ» .،فكأنما هي وعاء لهم تضيق بهـــم ولا تسعهم،وتضغطهم فيتكرب أنفاسهم.«وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» ..وليس هناك ملجأ من الله لأحد،وهو آخـــذ بأقطـــار الأرض والسماوات،ولكن ذكر هذه الحقيقة هنا في هـــذا الجـــو المكروب يخلع على المشهد ظلا من الكربة واليـــأس والضـــيق،لا مخرج منه إلا بالالتجاء إلى الله مفرج الكروب ..

ثم يجيء الفرج .،«ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّـــهَ هُـــوَ التَّـــوَّابُ الرَّحِيمُ»،تاب عليهم من هذا الذنب الخاص،ليتوبوا توبة عامة عن كل مـــا مضـــى،ولينيبوا إلى الله إنابـــة كاملـــة في كـــل مـــا سيأتي،ومصداق هذا في قول كعب:قلت:يا رســـول الله،إن مـــن توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله،قال:«أمســـك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال فقلت:فإني أمسك ســـهمي الذي بخيبر،وقلت:يا رسول الله إنما نجاني الله بالصـــدق وإن مـــن توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت،قال:فو الله ما أعلم أحدا مـــن المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول

الله – ﷺ – أحسن مما أبلاني الله تعالى،والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله – ﷺ – إلى يومي هـــذا،وإني لأرجـــو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي.[23]

**٥– لا يجوز التخلف عن رسول الله ﷺ في الغزو:**

قال تعالى:{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْـأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُـونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَـةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْـزِيَهُمُ اللَّـهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) } [التوبة]

يُعَاتِبُ اللهُ تَعَالَى الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللهِ،عَلَـى تَخَلُّفِهِـمْ عَـنْ نَبِيِّهِمْ،وَإِيثَارِهِمْ أَنْفُسَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ وَيَخُصُّ بِالعِتَابِ أَهْـلَ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ،فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسَـهُمْ مِـنَ الأَجْرِ،لأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ عَطَشٌ وَلاَ تَعَبٌ وَلاَ مَجَاعَةٌ ( مَخْمَصَـةٌ )،وَلاَ يَنْزِلُونَ مَنْزِلاً يُرْهِبُ الكُفَّارَ،وَيَغِيظُهُمْ،وَلاَ يُحَقِّقُـونَ عَلَـى

---

[23] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٥٨)

أَعْدَائِهِمْ ظَفَراً وَغَلَبَةً ،،إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُمْ بِهذِهِ الأَعْمَالِ،ثَوَابَ عَمَلٍ صَالِحٍ جَزِيلٍ،وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً .

وَلاَ يُنْفِقُ هؤُلاَءِ الغُزَاةُ قَلِيلاً وَلاَ كَثِيراً فِي سَبِيلِ اللهِ،وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً فِي سَيْرِهِمْ إِلَى أَعْدَائِهِمْ،إلاَّ كَتَبَ لَهُمْ،وَسُجِّلَ فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ عَلَيهِ جَزَاءً أَحْسَنَ مِنْ جَزَائِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الجَلِيلَةِ فِي غَيْرِ الجِهَادِ،فَالنَّفَقَةُ الصَّغِيرَةُ فِي الجِهَادِ كَالنَّفَقَةِ الكَبِيرَةِ فِي غَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ المَبَرَّاتِ .[24]

ما كان ينبغي لأهل مدينة رسول الله ﷺ ومَن حولهم من سكان البادية أن يتخلَّفوا في أهلهم ودورهم عن رسول الله ﷺ،ولا يرضوا لأنفسهم بالراحة والرسول ﷺ في تعب ومشقة؛ذلك بأنهم لا يصيبهم في سفرهم وجهادهم عطش ولا تعب ولا مجاعة في سبيل الله،ولا يطؤون أرضًا يُغضِبُ الكفارَ وطؤهم إياها،ولا يصيبون من عدو الله وعدوهم قتلا أو هزيمةً إلا كُتب لهم بذلك كله ثواب عمل صالح،إن الله لا يضيع أجر المحسنين الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله،وقيامهم بما عليهم من حقه،وحق خلقه،ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة في سبيل الله،ولا يقطعون

[24] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٥٦،بترقيم الشاملة آليا)

واديًا في سيرهم مع رسول الله ﷺ في جهاده،إلا كُتب لهم أجـــر عملهم؛ليجزيهم الله أحسن ما يُجْزَون به على أعمالهم الصالحة.[25]

---

**٦- انشغال المتخلفين بالأموال والأهل عن الجهاد في سبيل الله:**

قال تعالى:{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَـــغَلَتْنَا أَمْوَالُنَـــا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَـــلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْـــتُمْ ظَـــنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)} [الفتح:١١،١٢]

لَما اتَّجَهَ رَسُولَ الله ﷺ إلى مَكَّةَ مَعْتَمراً عَامَ الحُدَيْبِيَة اسْتَنْفَرَ القَبَائِلَ المُسْلِمَةَ التِي تَقِيمُ حَوْلَ المَدِينة،فَنَفَر أُنَاسٌ وَتَبَاطَأَ أُنَاسٌ وَكَانَ مِمَّنْ تَبَاطَأَ واعْتَذَرَ عَنِ الخُرُوجِ مَعَهُ:قَبَائِلُ جُهَينَةَ وَمُزَيْنَةَ وَغِفَارٍ وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ،وَقَالُوا للرَّسُول مُعتَذرِينَ:

إِنَّ أَمْوَالهم وَأَهْلِيهمْ قَدْ شَغَلَتْهُمْ عَـــنِ الخُـــرُوجِ مَعَـــهُ،وَلكَنَّهُمْ في الحَقِيقَة كَانُوا ضِعَافَ الإِيمَانِ،خَائِفِينَ مِنْ مُواجَهَة قُرِيشٍ وَثَقِيـــفٍ وَكِنَانَةَ وَالقَبائِلِ المُحَالِفَة لقريشٍ حوْلَ مَكَّةَ،وَقَالَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ:

---

[25] - التفسير الميسر (١/ ٢٠٦)

كَيفَ نَذْهَبُ إلى قَوْمٍ غَزَوْهُ في عُقْــرِ دَارِه بالمَدِينــةِ فَنُقَــاتِلُهُم؟ وَقَالُوا:لَنْ يَرْجِعَ مُحمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ مِنْ هذه السَّفْرَة،فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالى هذه الآيةَ يَفْضَحُهُم فِيها.

وَمَعْنَى الآية:سَيَقُولُ لَكَ الذينَ تَخَلَّفُوا مِنَ الأَعْرَابِ عَنْ صُــحْبَتِك إلى مَكَّةَ للْعُمْرَة:لَقَدْ شَغَلَتْنا عَنِ الخُرُوجِ مَعَــكَ رِعَايَــةُ أَمْوالنـــا وَأَهْلِينا،فَاسْتَغْفِرْ لَنَا اللهَ رَبَّكَ،إِذْ لَمْ يَكُنْ تَخَلُّفُنـــا عَـــنْ مُخَالَفَـــةٍ لأَمْرِكَ.

وَيَرَدُّ اللهُ تَعَالى عَلَيهم مُكَذِّباً فَيَقُولُ لَهُمْ:إِنَّهُم لَيْسُوا بِصَـــادِقِينَ في قَوْلِهِمْ إنَّ سَبَبَ امْتِنَاعِهِمْ عَنِ الخُرُوجِ هُوَ رِعَايَةُ مُصَالحِ أَمْــوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ،وَإِنَّهُم إِنَّما تَخَلَّفُــوا لاعْتِقَــادِهِمْ أَنَّ النَّبِــيَّ وَالمُــؤْمِنِينَ سَيُغْلَبُونَ،وَأَنَّهُمْ لَنْ يَرْجِعُوا مِنْ سَفَرِهِمْ هذا أَبَداً.

ثُمّ أَمَرَ اللهُ تَعَالى الرَّسُولَ الكَرِيمَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ:إِنَّكُمْ قَعدتُمْ ظَنّــاً مِنْكُمْ أَنّ في القُعُودِ السَّلامَةَ،وَلكِنْ إذا أَرَادَ اللهُ بِكُمْ شَرّاً وَسُــوءاً فَلَنْ يَنْفَعَكُمُ القُعُودُ شَيئاً،وَإِذا أَرَادَ بِكُمْ خَيْراً فَلاَ رَادَّ لِقَضَائِه،وَاللهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّهُ العِبَادُ،وَمَا يَعْلِنُونَهُ،وَلاَ يَخْفَى عَلَيــه مِـــنْ أُمُــورِهِمْ شَيءٌ،وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُم إِنَّما تَخَلَّفُوا شكاً وَنفَاقاً وَضَعْفَ إِيمانٍ،فَقَــدْ كَانَ سَبَبَ قُعُودِكُمْ هُــوَ اعْتِقَــادُكُم أَنَّ الرَّسُــولَ والمُــؤْمِنِينَ سَيُقْتَلُونَ،وَسَتُستَأْصَلُ شَأْفَتُهُمْ،وَلَنْ يَعُودَ مِنْهُمْ أَحَدٌ مِنْ هَذِه الغَزْوَة

إلى أَهْلِيهم،وَزَيَّنَ لَكُمُ الشَّيْطَانُ ذلكَ الظَّنَّ السَّـيِّئَ،فَقَعدْتُمْ عَـنْ صُحْبَته،وَظَنَنْتُم أَنَّ اللهَ لَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمنينَ عَلَـى أَعْـدَائهِمْ فَصِرْتُمْ بِهذهِ المَقَالَة قَوْماً هَالكينَ،مُسْتَوجبينَ سُخْطَ الله وَعَذَابَهُ.[26]

سيقول لك -أيها النبي- الذين تخلَّفوا من الأعراب عن الخـروج معك إلى «مكة» إذا عاتبتهم:شغلتنا أموالنا وأهلونا،فاسأل ربـك أن يغفر لنا تخلُّفنا،يقولون ذلـك بألسـنتهم،ولا حقيقـة لـه في قلوبهم،قل لهم:فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم شـرًا أو خيرًا؟ ليس الأمر كما ظن هؤلاء المنـافقون أن الله لا يعلـم مـا انطوت عليه بواطنهم من النفاق،بل إنه سبحانه كان بما يعملـون خبيرًا،لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه.ولـيس الأمـر كمـا زعمتم من انشغالكم بالأموال والأهل،بل إنكم ظننتم أن رسـول الله ﷺ ومن معه من أصحابه سـيَهْلكون،ولا يَرْجعـون إلـيكم أبدًا،وحسَّن الشيطان ذلك في قلوبكم،وظننتم ظنًا سيئًا أن الله لن ينصر نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على أعدائهم،وكنتم قومًا هَلْكى لا خير فيكم.[27]

---

[26] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٧٣،بترقيم الشاملة آليا)

[27] - التفسير الميسر (١/ ٥١٢)

## ٧- المخلفون يريدون الغنائم والأسلاب دون جهاد:

قال تعالى:{سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) } [الفتح ]

بَعْدَ أَنْ أمِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَرَّ قُرَيشٍ بَعَهْدِ الحُدَيْبِيَة،اتَّجَهَ إلى اليَهُودِ في خَيْبَرَ لِيَسْتَأْصِلَ شَأفَتَهُمْ،وَيَقضِي عَلَى شَرِّهِمْ؛ إذْ لاَقَى الرَّسُولُ وَالُمسْلِمُونَ مِنَ اليَهُودِ،وَكَيْدهم الشَّيءَ الكَثِيرَ،وَلما أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ الخُرُوجَ إلى خَيْبَر تَقَدَّمَ الأَعْرَابُ،الذينَ تَخَلَّفُوا عَنِ السَّيرِ مَعَ الرَّسُولِ إلى الحُدَيْبِيَة،يَطْلُبُونَ الإذْنَ لَهُمْ بالخُرُوجِ مَعَهُ إلى خَيْبَرَ،فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَه ﷺ بألاَّ يَأْذَنَ لَهُمْ بالخُرُوجِ مَعَهُ،لأَنَّهُمْ قَعَدُوا حِينَما كَانَتْ هُنَاكَ مَخَاطِرُ حَرْبٍ شَدِيدة،وَهُمْ يُرِيدُونَ الخُرُوجَ الآنَ لِيَحُوزُوا المَغَانِمَ السَّهْلَة،فَقَالَ هؤلاءِ المَخْلَّفُونَ إنَّ سَبَبَ مَنْعِهِمْ مِنَ الخُرُوجِ إلى خَيْبَر هُوَ حَسَدُ الُمؤمِنينَ لَهُمْ أَنْ يُشَارِكُوهُمْ في المَغْنَمِ.

وَمَعْنَى الآيةِ:يَقُولُ الـــذِينَ تَخَلَّفُـــوا عَـــنْ صُـــحْبَتِكَ فِي عُمْـــرَةِ الحُدَيْبِيَةِ،مُعْتَذِرِينَ بِرِعَايَةِ مَصَالِحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،دَعُونا نَسِرْ مَعَكُمْ إلى خَيْبَرَ،وَهُمْ بِذلكَ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا مَا وَعَـــدَ اللهُ بِـــهِ الرَّسُـــولَ وأَصْحَابَهُ،الذِينَ سَارُوا مَعَهُ إلى الحُدَيْبِيَةِ،بِأَنَّ يَكُونَ لَهُمْ مَغْنَمُ خَيْبَرَ خَالِصاً لاَ يُشَارِكُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ،فإذا سَمَحَ الرَّسُولُ لَهُمْ بِالخُرُوجِ مَعَهُ إِلى خَيْبَرَ كَانَ لَهُمْ حَقٌّ بِالْمُشَارَكَةِ فِي الْمَغْنَمِ،وَفِي ذَلِـــكَ تَبْـــدِيلٌ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَوَعْدِهِ،وَأَمَرَ اللهُ تَعَالى رَسُولَهُ بِـــأَنْ يَقُـــولَ لِهـــؤلاءِ الأَعرابِ:لَنْ تَتْبَعُونا كَذلكَ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ،إذْ إنَّ اللهَ جَعَلَ مَغْـــنَمَ خَيْبَرَ خَالِصاً لِمَنْ كَانُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي الحُدَيْبِيَـــةِ،فادَّعَى هـــؤُلاءِ الأعْرَابُ أَنَّ اللهَ مَا قَالَ ذلكَ مِنْ قَبْلُ،بَل إِنَّ الْمُسْلِمِينَ يَحْسُدُونَهُمْ وَلا يُرِيدُونَ أَنْ يُشَارِكَهُمْ أَحَدٌ فِي المَغْنَمِ،وَيَرُدُّ اللهُ تَعَـــالى قَـــائِلاً لهؤلاءِ:إنَّ الأَمْرَ لَيْسَ كَما قَالَ هؤُلاءِ الْمُنَافِقُونَ مِنْ أَنَّكُمْ تَمْنَعُونَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِكُمْ حَسَداً مِنْكُمْ لَهُمْ،وَإِنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ القَوْلَ لأَنَّهُـــمْ لاَ يَفْقَهُونَ أَمْرَ الدِّينِ إلاَّ قَلِيلاً وَلَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ لما اتَّهَمُوا الرَّسُـــولَ وَالمؤْمِنِينَ بالحَسَدِ،وَلما نَفَوا أنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ وَعَدَ أَصْحَابَ الحُدَيْبِيَةِ بِحَوْزِ مَغْنَمِ خَيْبَرَ وَحْدَهُمْ.

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لهؤُلاءِ الأَعْرابِ،الذِينَ تَخَلَّفُوا عَـــنْ صُـــحْبَتِكَ إلى الحُدَيْبِيَةِ:إِنَّكُمْ سَتُدعَوْنَ إلى قِتَالِ قَوْمٍ أُولِي قُوَّةٍ وَنَجْدَةٍ وَبَـــأْسٍ،وَإِنَّ

عَلَيْكُمْ أَنْ تُخَيِّروهُمْ بَيْنَ أَمْرَين:إمَّا السَّيفُ وَإمَّا الإِسْلاَمُ – وهـذا حَكْمٌ عَامٌّ فِي مُشْرِكي العَرَبِ وَالمُرْتَدِّين – فَإذا أَطَعْتُمْ أَمَرَ اللهِ وَرَسُولِه وَخَرَجْتُمْ إلى مُجَاهَدَةِ هؤُلاء،فإنَّ اللهَ سَيُثِيبُكُمْ عَلَى ذلكَ ثَواباً جَزِيلاً فَتَنَالُونَ المَغْنَمَ في الدُّنيا،وَالجَنَّةَ في الآخرَة،أَمَّا إذا رَفَضْتُمُ الخُرُوجَ إليهم،وَالمُبَادَرَةَ إلى مُجَاهَدَتِهِمْ،وَعَصَيْتُمْ أَمْرَ اللهِ وَرَسُولِه،كَمَا فَعَلْتُمْ مِنْ قَبْلُ،حِينَ قَعَدْتُمْ عَنِ الخُرُوجِ إلى الحُدَيْبِيَة،فَإِنَّ اللهَ سَيُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً أليماً في الدُّنيا وَالآخرَة.[٢٨]

سيقول المخلَّفون،إذا انطلقت –أيها النبي– أنت وأصحابك إلى غنائم «خيبر» التي وعدكم الله بها،اتركونا نذهب معكم إلى «خيبر»،يريدون أن يغيِّروا بذلك وعد الله لكم،قل لهم:لن تخرجوا معنا إلى «خيبر» ؛ لأن الله تعالى قال لنا من قبل رجوعنا إلى «المدينة»:إن غنائم «خيبر» هي لمن شهد «الحديبية» معنا،فسيقولون:ليس الأمر كما تقولون،إن الله لم يأمركم بهذا،إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسدًا منكم؛ لئلا نصيب معكم الغنيمة،وليس الأمر كما زعموا،بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وما عليهم من أمر الدين إلا يسيرًا.

---

[٢٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٧٧،بترقيم الشاملة آليا)

قل للذين تخلَّفوا من الأعراب -وهم البدو- عن القتال: ستُدْعون إلى قتال قوم أصحاب بأس شديد في القتال، تقاتلونهم أو يسلمون من غير قتال، فإن تطيعوا الله فيما دعاكم إليه من قتال هؤلاء القوم يؤتكم الجنة، وإن تعصوه كما فعلتم حين تخلفتم عن السير مع رسول الله ﷺ إلى «مكة»، يعذبكم عذابًا موجعًا.[29]

---

**٨- ذم المتثاقلين إلى الأرض:**

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) } [التوبة:٣٨ - ٤٠]

---

[29] - التفسير الميسر (١/ ٥١٢)

يُعَاتبُ اللهُ تَعَالَى مَنْ تَخَلَّفَ،منَ الْمُؤْمنينَ،عَنْ رَسُولِ اللهِ فِي غَــزْوَةِ تَبُوكَ،حينَ طَابَت الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ،وَكَانَ الْوَقْتُ حَارّاً قَائظاً،فَيَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ:مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمنُونَ إِذَا دُعيتُمْ إِلَى الجهَاد فِي سَبيلِ اللهِ تَكَاسَلْتُمْ وَتَبَاطَأْتُمْ،وَملْتُمْ إِلَى الدَّعَةِ وَالإِقَامَةِ فِي الظِّــلِ وَطيــبِ الثِّمَارِ؟ أَفَعَلْتُمْ ذَلكَ رضاً منْكُمْ بالْحَيَاة الدُّنْيَا بَدَلاً منَ الآخرَة؟ وَمَا قيمَةُ الحَيَاة الدُّنْيَا وَمَا مَتَاعُهَا إِلاَّ قَليلٌ بالنِّسْــبَة إِلَــى الآخــرَة،إِذْ يَنْتَظرُونَ الْمُؤْمنينَ رضْوانٌ منْ رَبِّهِــمْ وَرَحْمَــةٌ،وَجَنَّاتٌ عَرْضُــهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ.

وَإِذَا لَمْ تَنْفرُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ،وَلَمْ تَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الجهَاد فَــإِنَّ اللهَ سَيُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً أَليماً فِــي الــدُّنْيَا،بزَوَالِ النِّعْمَــة وَغَيْرِهَــا عَنْكُمْ،وَفِي الآخرَة فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَلاَ يَصْعُبُ عَلَى اللهِ أَن يَسْتَبْدلَ قَوْماً غَيْرَكُمْ بكُمْ،يَخفُّونَ لنُصْــرَة نَبيِّه،وَيُجَاهــدُونَ بــأَمْوَالهمْ وَأَنْفُسهمْ فِي سَبيلِ اللهِ،فَهُوَ قَادرٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ،وَلَيْسَ فِي ذَلكَ مَا يَضُرُّ اللهَ،لأَنَّهُ الغَنيُّ عَنِ العبَاد،وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْه.

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمنُونَ إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَــإِنَّ اللهَ نَاصــرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافيه،كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ حينَ أَخْرَجَهُ الَّذينَ كَفَرُوا مــنْ مَكَّةَ حينَ هَاجرَ،فَخَرَجَ منْهَا هَارباً بصُحْبَة صَديقه وَصَاحبه أَبِــي بَكْرٍ،فَلَجَأَ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ،وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِــي

آثَارِهِمَا حَتَّى وَقَفُوا بِبَابِ الغَارِ،فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكرٍ جَزِعاً:لَـوْ نَظَـرَ أَحَدُهُمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ لَرَآنَا،فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ:مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ طُمَأْنِينَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَـى رَسُـولِهِ،وَأَيَّدَهُ بِالمَلاَئِكَةِ تَحْفَظُهُ وَتَحْمِيهِ (بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)،وَجَعَلَ كَلِمَةَ الشِّـرْكِ وَأَهْلَهُ السُّفْلَى،وَجَعَلَ كَلِمَةَ الإِيمَانِ (لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ) هِيَ الْعُلْيَـا،وَاللهُ عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ،وَهُوَ مَنِيعُ الْجَانِبِ لاَ يُضَامُ،وَهُوَ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَتَدْبِيرِه.[30]

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه،ما بالكم إذا قيل لكم:اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله لقتال أعـدائكم تكاسـلتم ولزمتم مساكنكم؟ هل آثرتم حظوظكم الدنيويـة علـى نعـيم الآخرة؟ فما تستمتعون به في الدنيا قليل زائل،أما نعـيم الآخـرة الذي أعده الله للمؤمنين المجاهدين فكثير دائم.إن لا تنفروا أيهـا المؤمنون إلى قتال عدوكم ينزل الله عقوبته بكم،ويأت بقوم آخرين ينفرون إذا استُنْفروا،ويطيعون الله ورسوله،ولن تضروا الله شـيئًا بتولِّيكم عن الجهاد،فهو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه،وما يريـده الله يكون لا محالة،والله على كل شيء قدير من نصر دينه ونبيـه دونكم، يا معشر أصحاب رسول الله ﷺ إن لا تنفروا معه أيهـا

[30] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٧٤،بترقيم الشاملة آليا)

المؤمنون إذا استَنْفَركم،وإن لا تنصروه؛فقد أيده الله ونصره يـــوم أخرجه الكفار من قريش من بلده (مكة)،وهو ثاني اثنين (هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه) وألجؤوهما إلى نقب في جبل ثور بـــ «مكة»،فمكثا فيه ثلاث ليال،إذ يقول لصاحبه (أبي بكر) لما رأى منه الخوف عليه:لا تحزن إن الله معنا بنصـــره وتأييـــده،فأنزل الله الطمأنينة في قلب رسول الله ﷺ،وأعانه بجنود لم يرها أحـــد مـــن البشر وهم الملائكة،فأنجاه الله من عدوه وأذل الله أعـــداءه،وجعل كلمة الذين كفروا السفلى،وكلمةُ الله هي العليا،وذلـــك بـــإعلاء شأن الإسلام،والله عزيز في ملكه،حكيم في تدبير شؤون عباده،وفي هذه الآية منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه[31]،

وقال القرطبيّ في تفسير قوله تعالى:(اثَّاقَلْتُمْ إِلَـــى الْـــأَرْضِ) قَـــالَ الْمُفَسِّرُونَ:مَعْنَاهُ اثَّاقَلْتُمْ إِلَـــى نَعِـــيمِ الْـــأَرْضِ،أَوْ إِلَـــى الْإِقَامَـــةِ بِالْأَرْضِ،وَهُوَ تَوْبِيخٌ عَلَى تَرْكِ الْجِهَادِ وَعِتَابٌ عَلَى التَّقَاعُـــدِ عَـــنِ الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخُرُوجِ،وَهُوَ نَحْوُ مَنْ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ.[32]

وقال:" وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ مُؤَكَّدٌ فِي تَرْكِ النَّفِيرِ،قَالَ ابْـــنُ الْعَرَبِيِّ:وَمِنْ مُحَقَّقَاتِ الْأُصُولِ أَنَّ الْأَمْرَ إِذَا وَرَدَ فَلَيْسَ فِـــي وُرُودِهِ

---

[31] - التفسير الميسر (١/ ١٩٣)

[32] - تفسير القرطبي (٨/ ١٤٠)

أَكْثَرُ مِنِ اقْتِضَاءِ الْفِعْلِ،فَأَمَّا الْعِقَابُ عِنْدَ التَّرْكِ فَلَا يُؤْخَذُ مِنْ نَفْسِ الْأَمْرِ وَلَا يقتضيه الاقْتِضَاءُ،وَإِنَّمَا يَكُونُ الْعِقَابُ بِالْخَبَرِ عَنْهُ،كَقَوْلِهِ:إِنْ لَمْ تَفْعَلْ كَذَا عَذَّبْتُكَ بِكَذَا،كَمَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ،فَوَجَبَ بِمُقْتَضَاهَا النَّفِيرُ لِلْجِهَادِ وَالْخُرُوجُ إِلَى الْكُفَّارِ لِمُقَاتَلَتِهِمْ عَلَى أَنْ تكون كلمة الله هي العليا."[٣٣]

وقال:" إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وُجُوبُ النَّفِيرِ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَظُهُورِ الْكَفَرَةِ وَاشْتِدَادِ شَوْكَتِهِمْ،وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِدْعَاءِ فَعَلَى هَذَا لَا يَتَّجِهُ الْحَمْلُ عَلَى وَقْتِ ظُهُورِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ وُجُوبَ ذَلِكَ لَا يَخْتَصُّ بِالِاسْتِدْعَاءِ،لِأَنَّهُ مُتَعَيِّنٌ،وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَالِاسْتِدْعَاءُ وَالِاسْتِنْفَارُ يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مُوجِبًا شَيْئًا لَمْ يَجِبْ مِنْ قَبْلُ إِلَّا أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا عَيَّنَ قَوْمًا وَنَدَبَهُمْ إِلَى الْجِهَادِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَتَثَاقَلُوا عِنْدَ التَّعْيِينِ وَيَصِيرُ بِتَعْيِينِهِ فَرْضًا عَلَى مَنْ عَيَّنَهُ لَا لِمَكَانِ الْجِهَادِ وَلَكِنْ لِطَاعَةِ الْإِمَامِ،وَاللَّهُ أعلم.[٣٤]

---

**٩- الزعم أن بيوهم عورة ذهبوا لحمايتها وهم كاذبون:**

---

[٣٣] - تفسير القرطبي (٨/ ١٤١)

[٣٤] - تفسير القرطبي (٨/ ١٤٢)

قال تعالى:{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)} [الأحزاب]

أمّا المنافقون فظهر نفاقهمْ،فقال معْتب بْن قشيْرٍ مـــا قال،وقـــال ضعاف الإيمان والذين في أَنْفسهمْ ريبةٌ وشـــكٌ،لقرْب عهْـــدهمْ بالإسْلام – { الذين في قلوبهمْ مرضٌ }:{ ما وعدنا الله ورســـوله إلاّ غروراً }،أيْ لمْ يكنْ ما وعدنا به الله من النّصْر والظّفر بالعدوّ إلا وعْداً يغرّنا ويخْدعنا.

واذْكرْ يا محمّد حين قالتْ طائفةٌ من المنافقين ( كعبد الله بْـــن أبيّ ابْن سلولٍ وأصْحابه ):يا أهْل المدينـــة ( يثْـــرب ) لـــيْس هـــذا المقام،الذي تقيمونه مرابطين مع النّبيّ،بمقامٍ صالحٍ لكمْ،فارْجعوا إلى منازلكمْ لتحْموها،ولتدافعوا عنْها وعنْ عيالكمْ.واسْـــتأْذن فريـــقٌ منْهم النّبيّ ﷺ طالبين السّماح لهمْ بالعوْدة إلى منازلهمْ ( وهمْ بنـــو حارثة )،وقالوا إنّهمْ يخافون على بيوتهم السّرّاق،وأ ن بيوتهمْ ليس لها منْ يحْميها ( عوْرةٌ ).

ويردّ الله تعالى على هؤلاء قائلاً:إنّ بيوتهم ليْستْ عوْرةً،ولا مهدّدةً منْ أحدٍ كما يزْعمون،وإنّما يريـــدون الفـــرار والهـــرب مـــن القتال،وعدم إعانة المسْلمين في حرْبهمْ أعْداء الله.

ولوْ دخل عليهم الأعْداء منْ كلّ جانبٍ منْ جوانب المدينـــة،وكلّ قطْر منْ أقْطارها ( وقيل بل المقْصود بيـــوتهمْ ) وطلبـــوا إلـــيهم الارْتداد عن الإسْلام،والعوْدة إلى الشّرْك،( لو سئلوا الفتْنة ) لفعلوا

ذلك سريعاً دون تردّد منْ شدّة الهلع والجزع،وهذا دليـــلٌ علـــى ضعْف إيمانهمْ.

وكان هؤلاء المسْتأْذنون – وهمْ بنوا حارثة – قدْ هربوا من القتال يوْم أحدٍ،وفرّوا منْ لقاء العدوّ،ثمّ تـــابوا وعاهـــدوا الله علـــى ألاّ يعودواإلى مثْلها،ولا ينْكصوا على أعْقابهمْ،ومنْ عاهد الله فـــإنّ الله سيسْأله عنْ عهْده يوْم القيامة،ويجْزيه به.

فقلْ يا محمّد لهؤلاء المسْتأْذنين الهاربين منْ قتال العدوّ ولقائـــه:إنّ الفرار من القتال لنْ ينْفعكمْ ولنْ يدْفع عنْكمْ ما قضاه الله علـــيْكمْ منْ موْتٍ أوْ قتْلٍ،وإذا نفعكمْ الفـــرار فلـــمْ تقْتلـــوا في ســـاحة الحرْب،فإنّ بقاءكمْ في الدّنيا محْدود الأجْل،ومتاعكمْ فيها متـــاعٌ قليلٌ،وسيأْتي الموْت في الموعد المحدّد لاً يتأخّر ولا يتقدّم.

وقلْ لهمْ:ليْس في الأرْض أحد يسْتطيع أنْ يمْنع قضـــاء الله مـــنْ أنْ يصل إليكمْ،فإنْ أراد الله بكمْ شراً فلا يسْـــتطيع أحـــدٌ أنْ يـــردّه عنْكمْ،ولا أنْيحول دون وقوعـــه بكـــمْ:وإنْ أراد بكـــمْ خيْـــراً ورحْمةً،فلا يسْتطيع أحدٌ أنْ يحول دون وصول ذلك إليْكمْ،فالأمْر كلّه بيد الله،يصرّفه كيْف يشاء.ولنْ يجد هؤلاء المنافقون وليّاً لهـــمْ غير الله،ولا ناصراً يدْفع عنْهمْ ما قضاه الله،وما قدّره عليهمْ مـــنْ سوءٍ وبلاء.

إنّ الله يعْلم حقّ العلْم الذين يقومون بتثْبيط همم النّاس عن القتال والثّبات مع رسول الله،ويصْرفوهمْ عنْ شهود الحرب معــه،ويعْلم الذين يقولون لأصْحابهمْ وعشرائهمْ:أسْرعوا إلينا،وأقبلوا على مــا نحْن فيه منْ طيب المقام في الظّلال والثّمار ( هلمّ إلينا )،وهــمْ لا يحْضرون إلى معْسكر المسْلمين إلا وقْتاً قصيراً يثْبتون فيه وجودهم أمام النّاس،ثمّ يخْتفون متسلّلين إذا غفل النّاس عنْهمْ.

وهمْ بخلاء شحيحون،لا يمدّون المؤْمنين بالنّفقة والمال،ولا يقدّمون لهم العوْن والنّصْرة بالنّفْس.فإذا بدأت الحــرْب،والتحم المقــاتلون رأيْتهمْ وقد اعْتراهم الخوْف والهلع ينْظرون إليك يا محمّد وأعْينهمْ تدور خوْفاً وفرقاً،كدوران عيْن الــذي غشــيه المــوْت،وقرب منْه،فتجْمد عيْنه ولا تطْرف.

أمّا إذا ذهب الخوْف وأسْــبابه،وعاد الأمْــن إلى النّفوس،فــإنّهمْ يرْفعون أصْواتهمْ،ويتكلّمون عن النّجْدة والشّهامة،والبطولات التي أظْهروها في ميدان المعْركة،وهمْ في هذا كاذبون.وإذا ظهر المؤْمنون في الحرْب فهمْ بخلاء حريصون على ألاّ يفــوتهمْ نصــيبٌ مــن المغانم،فهمْ حين البأس جبناء،وحين الغنيمة أشحّاءٌ ( وقيل بل المعْنى هو:فإذا ذهب الخوْف بالوا في شتْمكمْ وذمّكمْ بألْســنةٍ حــدادٍ مشْحوذةٍ قاطعةٍ ).

وهؤلاء،الذين بسط الله تعالى أوْصافهمْ، لمْ يؤْمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً،و لمْ يخْلصوا العمل لأنّهمْ أهْل نفاق فأهْلك الله أعْمالهمْ،وأبْطلها،وأذْهب ثوابها وأجورها،وجعلها هباءً منْثوراً،وكان إحْباط أعْمالهمْ أمراً يسيراً على الله.

وهمْ منْ شدّة دهْشتهمْ،وضعْف إيمانهمْ لا يزالون يظنّون أنّ الأحزاب منْ قريشٍ وغطْفان.. لمْ يرْحلوا عن المدينة،وقدْ هزمهم الله ورحلوا.وإذا عاد الأحْزاب مرّةً أخْرى لقتال المسْلمين في المدينة وحصارها،تمنّوا لوْ أنّهمْ كانوا مقيمين في البادية بين الأعراب بعيداً عن المدينة،حتّى لا يلْحق بهمْ مكْروهٌ،ويكْتفون بالسّؤال عنْ أخْباركمْ كلّ قادمٍ إليهمْ منْ جهة المدينة.ولوْ أنّ هؤلاء المنافقين كانوا بيْنكمْ أثْناء القتال لما قاتلوا معكمْ إلاّ قتالاً يسيراً رياءً وخوْفاً من المعْركة،لا قتالاً يرْجون به ثواب الله في الآخرة [35].

قوله تعالى:«وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً»..

العطف هنا على قوله تعالى:«وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» فهذه حال من تلك الأحوال التي عرضت للمسلمين يومئذ،وهى أن المنافقين ومن في قلوبهم مرض

[35] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

من المؤمنين،قد كانوا من الذين ظنوا بالله ظن السوء..فكان قولهم في مواجهة هذا الابتلاء،هو الكفر الصريح:

«ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً»..أي أكاذيب وأباطيل،وأماني من من الخداع،والتغرير..وهكذا تكشف الشدائد والمحن عن معادن الناس،وعن مطويات الضمائر،وما تخفى الصدور..

قوله تعالى:«وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً»..

هو معطوف على ما قبله،وهو بيان لمقولة طائفة من طوائف هؤلاء المنافقين ومن في قلوبهم مرض..إنهم لم يقفوا عند حدّ هذه الوساوس السوء من الظنون،بل جاوزوا هذا إلى إذاعتها في الناس،وإلى تيئيسهم،وزعزعة إيمانهم..فينادون في الناس بهذا النداء الشيطاني المشئوم:«يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا»

أي ماذا تنتظرون؟ وما متعلقكم بهذه الأماني الباطلة؟

إنكم مخدوعون..فما مقامكم فيما أنتم فيه؟ ارجعوا إلى دياركم وأهليكم،حيث الأمن والسلامة،وحيث الراحة من هذا العبث الذي لا شيء وراءه..

وفي مناداهم بيا أهل يثرب،دعوة إلى ردّة،يريدون بها دفــع هــذه المشاعر الجديدة التي عاش بها المسلمون في مجتمعهم الجديــد،حيث اتخذت المدينة في ظل الإسلام اسما جديدا،هو المدينة،بدلا من اسمها «يثرب» الذي عاشت فيه مع الكفر والشرك! إنهم يريدون بهــذا النداء،أن يجلو عن المشاعر هذا الاسم الكريم،كما أرادوا أن يجلــو عنها الدين الحنيف! قوله تعالى:«وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ»..

معطوف على محذوف،هو استجابة لهذه الدعوة التي دعا بها بعض المنافقين ومن في قلوبهم مرض،واستجاب لها بعض المنافقين ومن في قلوبهم مرض..

ودعوتهم هى:«يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا»..واســتجابة المستجيبين لهذه الدعوة كانت على أسلوبين:أسلوب الرجوع بغير استئذان من النبي،وأسلوب الرجوع بعد الإذن منه..أي أن هؤلاء الذين استجابوا لتلك الدعوة من المنافقين ومن في قلوبهم مــرض كانوا فريقين:أحدهما استجاب للــدعوة فــورا،فلم يلتفــت إلى شىء،ولم يراجع نفسه،أو يرجع إلى النبىّ..والآخر،أراد أن يدارى نفاقه ويستر ضعف إيمانه،بهذا العذر الذي يعتذر به للنبى،وهــو أن بيته مهدد بمن يعتدى عليه،ويهتك ستره..وهذا ما يشير إليه قولــه

تعالى حكاية لقولهم:«يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ» أي معرضة للعدوان عليها من المشركين أو غيرهم..

وفي قوله تعالى:«وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ» تكذيب لهذه القولة الفاجرة..إن بيوتهم ليست عورة،بل هى في حمى المسلمين جميعا،وما يجرى على بيوت المسلمين يجرى على بيوتهم..فلو دخل المشركون المدينة،لما استباحوا بيوت هؤلاء المعتذرين وحدهم،بل لاستباحوا بيوت المسلمين جميعها..«إن يريدون إلا فرارا» أي ما يريد هؤلاء المعتذرون إلا فرارا من هذا الموقف الذي هم فيه،وإلا ضنّا بأنفسهم عن أن يشهدوا القتال،وأن يكونوا في المقاتلين.

قوله تعالى:«وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً».

هو بيان لضعف إيمان هؤلاء المعتذرين،وأنهم يحرصون على حياتهم أكثر من حرصهم على إيمانهم،أو حرمات بيوتهم..فلو دخل المشركون على هؤلاء المعتذرين بيوتهم من كل مدخل منها،ثم دعوهم إلى الخروج منها لخرجوا منها،ونزلوا عنها لهم من غير أن يدافعوا عنها،ويؤدوا حق حرمتها عليهم..

- وفي قوله تعالى:«دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ» بالبناء للمجهول،إشارة إلى أن هؤلاء المعتذرين- لحرصهم على الحياة- يسلمون بيوتهم لأى داخل عليهم،فرارا بأنفسهم..

وفي قوله تعالى:«ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ» إشارة إلى أن ما يسألونه،ويطلب إليهم الخروج منه،وهو بيوتهم،هو فتنة،وبلاء عظيم،أشبه بالفتنة في الدين،لأن حرمة البيوت- عند الأحرار تعدل حرمة النفس،والدين،وغيرهما من المقدسات التي يحرص عليها الأحرار..وفي هذا يقول الله تعالى:«وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» (٦٦:النساء) فقد جاء الخروج من الديار موازنا لقتل النفوس..ويقول سبحانه وتعالى:«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» (١٩١:البقرة) فمن الفتنة،الإخراج من الديار.وفي قوله تعالى:«وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً،- إشارة إلى مبادرة هؤلاء المستخفّين بالحرمات،إلى الخروج من ديارهم،وتسليمها ليد طالبيها منهم،دون إمهال أو تلبث،..وحسبهم أن ينجوا بجلدهم!! فهؤلاء الذين فتنوا في دينهم،بموقفهم المتخاذل في مواجهة العدو،ثم فرارهم من ميدان المعركة،وخروجهم من دينهم في غير تردد،هم أنفسهم أولئك

الذين يترلون عن ديارهم،ويخرجون منها في غير تـردد أو تلبث أيضا..

وهكذا الإنسان،فى موقفه من حرماته..إن من يفرط في أي حرمة من الحرمات،هو مستعد للتفريط فيها كلـها..إنّ الحرمـات،هى كيان واحد،وإن تعددت صورها،وأشكالها..

قوله تعالى:«وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّـونَ الْأَدْبـارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا»..أي أن هـؤلاء الفـارين مـن ميـدان القتال،قد نقضوا عهدهم الذي عاهدوا الله عليه مـن قبـل،حين دخلوا في دين الله..

وهذا العهد،هو أن يطيعوا الله والرسول،وأن يجاهـدوا في سـبيل الله،وألّا يولّوا الأدبار..وفي هذا يقول الله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّـهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (١٥- ١٦:الأنفال)..فهذا هو عهد الله الذي أخذه على المؤمنين،وقد دخلوا في دين الله علـى هـذا العهد..

وفي قوله تعالى:«وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا» - إشارة إلى أن عهد الله أشبه بكائن حيّ مجسد،وأنه يقوم في الناس مقام الرسول المبلّغ عن

ربه..ولهذا فهو يسأل عمن أوفى به،ومن نكث،كما يسأل الرسل عمن آمن بهم ومن كفر،كما يقول الله تعالى:«يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ماذا أُجِبْتُمْ» (١٠٩:المائدة)..وفي هذا تعظيم لعهد الله،وما ينبغى أن يكون له في الناس من إكبار وإجلال.

قوله تعالى:«قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

هو قطع لتلك الآمال الكاذبة التي يعيش فيها أولئك الذين فروا من ميدان القتال،ظانّين أن ذلك يحفظ عليهم حياتهم،ويرد غائلة الموت عنهم..

وهم في هذا مخدوعون،قد غطّى على أبصارهم حبّ الحياة،حتى لقد أنساهم ذلك،تلك الحقيقة الماثلة أمامهم،وأنهم مقضى عليهم بالموت المحكوم به على كل حى..

فهذا الفرار من الموت- على أي صورة من صوره،حتفا،أو قتلا- إلى أين ينتهى بهم الطريق الذي يركبونه فارين منه؟ إنه منته بهم إلى الموت حتما..

إن لم يكن اليوم فغدا،أو بعد غد..إنه آت لا شك فيه،طال الطريق أم قصر..والله سبحانه وتعالى يقول:«قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ» (٨:الجمعة) ويقول سبحانه:«أَيْنَما تَكُونُوا

يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» (٧٨:النساء).- وفي قوله تعالى:«وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا» - أي أن هذا الفرار لا يعصمكم من الموت الذي يترصدكم،ويتربص بكم الساعة التي تنتهى فيها آجالكم.«فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ» (٣٤:الأعراف)..

قوله تعالى:«قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً». إشارة إلى أنه لا وجه يفرّ إليه هؤلاء الفارون من قضاء الله فيهم..إن ذلك الفرار سوء ظن منهم بسلطان الله وقدرته..ولو علموا بعض ما الله من علم وقدرة وسلطان،لما تحولوا عن هذا الموقف الذي هم فيه،مقدرين أن ذلك ينجيهم من الموت،ويمد لهم في آجالهم التي يخيل إليهم أن القتال،سيختصر مقامهم في هذه الدنيا،ويحصد حياتهم قبل أوانها..

وفي قوله تعالى:«مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً» - فى هذا ما يسأل عنه،وهو:إذا صح أن الإنسان يطلب معتصما يعتصم به حال الضر والسوء..فكيف يصح أن يطلب معتصما حين يراد به الخير والرحمة؟ وإذا صح أن يفر الإنسان من مواطن الخطر والشر،فهل يصح أن يفر من مواطن

الخير والإحسان؟..وإذا فما تأويل قوله تعـالى:«مَـنْ ذَا الَّـذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً» ؟.
والجواب على هذا من وجهين:
فأولا:أن الإنسان لا يملك مع أمر الله شيئا..وأن ما يساق إليه من سوء أو رحمة،هو من عند الله..وعلى هذا،فإنه إذا رأى بـلاء الله واقعا به،وطلب
وفي قوله تعالى:«مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ» بيان للصورة التي يقع عليها الموت،وهو إما أن يكـون موتـا طبيعيـا،أو في حـدث مـن الأحداث،كالحرب وغيرها..معتصما يعتصـم بـه،وملجأ،يلجأ إليه،من هذا البلاء،فلن يجد..كمـا أنـه إذا أراد الله بـه خـيرا ورحمة،فإن هذه الرحمة وذلك الخير لا بد أن يصلا إليـه مهمـا حاول هو- عن جهل وغباء- أن يفر منهما.
وثانيا:أن تقدير الإنسان للأمور لا يقع على وجه صحيح في كـل حال،فقد يفر الإنسان من أمر،ويعـرض عنـه،متكرها لـه،طالبا السلامة منه،وهو في صميمه خير له،وبركة عائدة عليـه..وأن الله سبحانه،لو كان يريد به الخير لأمسكه على هـذا المكروه،ولمـا صرفه عنه..ولو أراد به سبحانه السوء لخلىّ بينه وبين ما يريد،فيقع

في المكروه الذي يتوقع النجاة منه بإعراضه عنه،وفراره منه،وذلك بما يفوته من الخير المطوىّ فى هذا المكروه..

وهذا هو حال هؤلاء الفارّين من ميدان القتال..إنهم تكرهوا هــذا الأمر،وفروا منه،وهو في صميمه خير ورحمة وبركة..وإذ لم يرد الله بهم خيرا،فقد خلّى بينهم وبين ما أرادوا..على حين أنه سـبحانه أمسك على هذا المكروه،من أراد بهم الخير والرحمة مـن عبـاده المؤمنين..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْـراً لَأَسْمَعَهُمْ» (٢٣:الأنفال)..وفي قوله تعالى:«وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِـنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» – ما يسأل عنه أيضا،وهو:لماذا اختلف النظم،فكان خطابا في قوله تعالى «مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّـهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً»..

ثم كان غيبة في قوله تعالى:«وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ؟..والجواب على هذا،هو أن هذا الخطاب كـان لهـؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض،وهم في حضور مع المـؤمنين في ميدان القتـال..يعيشـون بتلـك الخـواطر المريضة،والمشـاعر الكاذبة،ويديرون في كيانهم وجوه الأعذار التي يعتذرون بها للفرار من هذا الموقف..هذا هو حالهم قبل أن يفروا..فلما اجتمـع لهـم الرأى على الفرار،وفرّوا– كان الحكم عليهم غيابيا،فى مواجهـة

المؤمنين..فلا يستمعون هم إلى هذا الحكم،ولا يدرون ماذا يريد الله بهم،حتى يفجؤهم العذاب،ويترل بهم البلاء،وهم في غفلة عنه..وفي هذا بلاء فوق البلاء،وعذاب فوق العذاب..

قوله تعالى:«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا».

المعوقون:هم الذين يمسكون غيرهم عن الخروج مع المؤمنين إلى القتال،بدءا،بعد أن فعلوا هذا بأنفسهم أولا..فهم لم يخرجوا إلى القتال،ثم ثبّطوا غيرهم،وزينوا لهم القعود.

والقاتلون لإخوانهم هلمّ إلينا..هم الذين قعدوا عن القتال،و لم يخرجوا،ثم سعوا إلى تحريض الذين خرجوا إلى القتال،وزينوا لهم أن يعودوا إليهم،وأن يقعدوا معهم كما قعدوا هم،قائلين لهم..«هَلُمَّ إِلَيْنا» – أي أقبلوا إلينا..وهلم اسم فعل أمر،يلزم حالا واحدة في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث،فيقال للاثنين:هلم،وللجمع:هلم..والبأس:القتال..و«قد يعلم»..بمعنى قد علم الله..لأن علم الله سبحانه وتعالى قديم..والتعبير عن العلم بفعل المستقبل،إنما هو بالنسبة لما سيقع من أصحاب هذه المواقف الخاسرة.فهو تحذير لهم من أن يقعوا في هذا المحظور المنكر،قبل أن يقع..

والآية تكشف عن موقفين من مواقف المنافقين والذين في قلــوبهم مرض،الذين تخلفوا و لم يخرجوا للقتال ابتداء،أثناء هذه المواجهــة التي كانت بين المسلمين،والأحزاب،على حافتي الخندق الذي أقامه المسلمون حول المدينة..

فهؤلاء الذين قعدوا، لم يقفوا عند هذا الحدّ..بـل كـان منـهم المعوّقون،الذين أمسكوا غيرهم معهم عن الخروج،وزينـوا لهـم القعود مع القاعدين..

وكان منهم الذين أرادوا إفساد أمر الذين خرجوا..يلقون إليهم بما يحسبونه نصحا لهم،وإشفاقا عليهم،فيقولون لهم فيما يقولون:عودوا إلينا..«لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا».

- قوله تعالى:«وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا».المفسرون علـى قـول واحد،فى أن هذا المقطع من الآية،هو وصف من أوصاف هـؤلاء المنافقين،الذين تهدّدهم الله سبحانه وتوعدهم بقوله:«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا» وهـو عنـدهم،إما معطوف على صلة الموصول في قوله تعالى:«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُـمَّ» أي الـذين يعوقـون غيرهـم منكم،ويقولون لإخوانهم هلم إلينا،ولا يأتون البأس إلا قليلا..وإما أن يكون حالا من الضمير في اسم الفاعل «والقائلين».

والرأى عندنا– والله أعلم– هو أن قوله تعالى:«وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا» حال من الضمير في «إخوانهم»..وهذا الحال هـــو وصـــف كاشف لإخوان المنافقين،الذين يدعوهم المنافقون إليهم،ويطمعون في أن يستجيبوا لهم..فهؤلاء الذين يطمع المنافقون في اســتجابتهم لهم،هم من ضعاف الإيمان،الذين يعرف المنافقون موطن الضـــعف فيهم،ولهذا سماهم القرآن «إخوانهم».ضانين بأنفســـهم علـــى أن يبذلوها في سبيل الله،فهم إذ يضنون على المسلمين إنما يضنون على دين الله،الذي يجاهد من أجله المجاهدون..

وقوله تعالى:«فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» وصف كاشف لهؤلاء المنـــافقين الذين يشهدون القتال،بعد أن فضحت الآيات الســـابقة مـــا في قلوبهم من زيغ،وما في نفوسهم مـــن مـــرض..فهـــم إذا جـــاء الخوف،أي حضر البأس والقتـــال..وقـــد عـــبر القـــرآن عنـــه بالخوف،بالإضافة إليهم،لأن القتال يطلع عليهم بما يملأ نفوســـهم خوفا وهلعا..أما المؤمنون،فإنهم إذا جاء القتال قالوا:«هـــذا مـــا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُـــمْ إِلَّـــا إِيماناً وَتَسْلِيماً»..(٢٢:الأحزاب).

وفي إقامة الخوف مقـام القتال،إشـارة إلى أن المنـافقين أجـبن الناس،وأشدهم حرصا على الحياة،وأن مجرد ذكر كلمـة الحـرب عندهم تملأ قلوبهم فزعا ورعبا- فالحرب بالإضافة إليهم،خـوف متجسد..

- وفي قوله تعالى:«رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُـنُهُمْ كَالَّـذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» تصوير للحال التي تستولى على هـؤلاء المنافقين ومن في قلوبهم مرض حـين تتحـرك أمـامهم أشـباح الحرب،وتلوح لهم جيوش العدو،فكيف يكون حالهم من الفـزع والرعب،حين يلقون العدو،وتسل السيوف وتشرع الرماح؟ إنهـم يموتون بصعقات الخوف،قبل أن يموتوا بضربات السيوف،وطعنات الرماح!! والخطاب هنا للنبى صلوات الله وسلامه عليه..ونظـرة المنافقين إلى النبي نظرة مذعورة،يائسة،تطل من أشباح مضـطربة متهالكة متهاوية..«كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» ! وهذا مثـل قوله تعالى:«فَإِذا أُنْزِلَتْ - وقوله تعالى:«وَكانَ ذلِكَ عَلَـى اللَّـهِ يَسِيراً»..الإشارة هنا إلى ما يقع على أعمالهم مـن إحبـاط لهـا كلها،فلا ينجح لهم كيد،ولا يستقيم لهم تدبير..إنهـم يكيـدون لله،ويحاربون ربهم بهذه الأسلحة الباطلـة،والله لا يصـلح عمـل المفسدين..«قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ

فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ».(٢٦:النحل) قوله تعالى:«يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا».

أي أن هذا الخوف الذي استولى على هؤلاء المنافقين من موقف القتال،وحال الحرب التي كانت متوقعة بين المسلمين وبين الأحزاب- قد لصق بهم،وصار كائنا يعيش فيهم،ووسواسا يملأ عليهم وجودهم،ويملك تفكيرهم،حتى أنهم- وقد ذهب الأحزاب،وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا- لم يصدقوا أنهم ذهبوا،إذ ما زال شبحهم مطلا عليهم..هكذا يفعل الخوف بالجبناء،الذين يحرصون على الحياة،ويبيعون من أجلها الشرف،والمروءة،والرجولة..

- وقوله تعالى:«وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ» أي ولو فرض أن الأحزاب عادوا مرة أخرى،وأخذوا مثل هذا الموقف من المسلمين،لتمنّى هؤلاء المنافقون أن ترمى بهم الأرض في مطرح غير ما هم فيه،وأن يكونوا من سكان القفار والبوادي..

- وقوله تعالى:«يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا»..

كلام مستأنف،يكشف عن حال من أحوال المنافقين،وهو أنهم- لما ركبهم من خوف،يسألون عن أنباء المسلمين في جبهة القتال،لا اطمئنانا على المسلمين،ولكن استكشافا للأمر،وتعرفا على الموقف،حتى يأخذوا العدّة لأنفسهم على الوجه الذي يرونه،فإن جاءهم الأنباء بأنّ المسلمين رجحت كفتهم وهبّت عليهم ريح النصر،انحازوا إليهم،وخلطوا أنفسهم بهم..وإن كان الأمر على غير هذا،فلن يعدموا وسيلة يتوسلون بها إلى الأحزاب..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن موقف المنافقين:«الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ..فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (١٤١:النساء).

- وقوله تعالى:«وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا» هو إنكار على المنافقين أن يسألوا عن أنباء هذا الموقف،وهم بمعزل عنه،وكان الأمر يقتضيهم أن يشاركوا في القتال،وأن يكونوا بين المقاتلين،إن لم يكن ذلك دفاعا عن الدين،فليكن عن الأهل والدار والوطن!! ومع هذا،فإنه لم يفت المسلمين خير كثير من تخلّف هؤلاء

المتخلفين،لأنهم لو شهدوا القتال لمـــا قـــاتلوا،أو قـــاتلوا قتـــال المنحرفين،الذين يطلبون السلامة لأنفسهم قبل كل شيء:«وَلَـــوْ كانُوا فِيكُمْ» أي لو شهدوا القتال معكم «ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا» أي لم يكن لهم إلا قتال هزيل لا أثر له.[٣٦]

**وفي الظلال:**

فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل،والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلـــومهم أحـــد وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد اللّه ووعد رسوله،وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون.فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك.وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم فالهول قد أزاح عنهم ذلـــك الســـتار الرقيـــق مـــن التجمل،وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين! ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة وموقفهم في الشدة هو موقـــف إخوانهم هؤلاء.

فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان! «وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ:يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَـــارْجِعُوا»..فهـــم

---

[٣٦] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٦٦٤)

يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف،والعودة إلى بيوتهم،بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مـــرابطين هكـــذا،لا موضـــع لهـــا ولا محل،وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم..وهي دعوة خبيثة تـــأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيهـــا،ثغرة الخـــوف علـــى النســـاء والذراري.والخطر محدق والهول جـــامح،والظنون لا تثبـــت ولا تستقر! «وَيَسْـــتَأْذِنُ فَرِيـــقٌ مِـــنْهُمُ النَّبِيَّ،يَقُولُـــونَ:إِنَّ بُيُوتَنـــا عَوْرَةٌ»..يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو.متروكة بـــلا حماية.

وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة،ويجردهم من العذر والحجة:«وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ»..

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيـــال والجـــبن والفـــرار:«إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً»..

وقد روي أن بني حارثة بعثت بأوس بن قيظي إلى رسول اللّـــه – ﷺ– يقولون:«إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ»،وليس دار من دور الأنصار مثـــل دورنا.ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا،فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا،فنمنع ذرارينا ونساءنا.فأذن لهم – ﷺ– فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال:يا رسول اللّه لا تأذن لهم.إنا واللّه ما أصابنا وإيـــاهم

شدة إلا صنعوا هكذا..فردهم..فهكذا كان أولئك الذين يجبــــهم القرآن بأنهم:«إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً»..

ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغة.يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنـــافقين والـــذين في قلوبهم مرض.صـــورة نفســـية داخليـــة لـــوهن العقيـــدة،وخور القلب،والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة غير مبقين على شيء،ولا متجملين لشيء:

«وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها،ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها،وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً»..

ذلك كان شأنهم والأعداء بعد خارج المدينة و لم تقـــتحم علـــيهم بعد.ومهما يكن الكرب والفزع،فالخطر المتوقـــع غـــير الخطـــر الواقع،فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها..«ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ» وطلبت إليهم الردة عن دينهم «لَآتَوْهـــا» ســـراعا غـــير متلبثين،ولا مترددين «إِلَّا قَلِيلًا» من الوقت،أو إلا قلـــيلا منـــهم يتلبثون شيئا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارا! فهي عقيدة واهنة لا تثبت وهو جبن غامر لا يملكون معـــه مقاومـــة! هكذا يكشفهم القرآن ويقف نفوسهم عارية من كل ســـتار..ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد وخلف الوعد.ومع من؟ مـــع اللّــــه

الذي عاهدوه من قبل على غير هـذا ثم لم يرعـوا مـع اللّـه عهدا:«وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ.وَكـانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا».

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق في السيرة:هم بنو حارثة،وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بني سلمة حين همتـا بالفشـل يومها.ثم عاهدوا اللّه ألا يعودوا لمثلها أبدا.فذكر لهم الذي أعطـوا من أنفسهم.فأما يـوم أحـد فقـد تـداركهم اللّـه برحمتـه ورعايته،وثبتهم،وعصمهم من عواقب الفشل.وكان ذلك درسـا من دروس التربية في أوائل العهد بالجهاد.فأما اليوم،وبعد الـزمن الطويل،والتجربة الكافية،فالقرآن يواجههم هذه المواجهة العنيفة.

وعند هذا المقطع – وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجـاة مـن الخطر والأمان من الفزع – يقرر القرآن إحدى القيم الباقية الـتي يقررها في أوانها ويصحح التصور الذي يدعوهم إلى نقض العهـد والفرار:«قُلْ:لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا.قُلْ:مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّـا وَلا نَصِيراً»..

إن قدر اللّه هو المسيطر على الأحداث والمصائر،يدفعها في الطريق المرسوم،وينتهي بها إلى النهاية المحتومة.والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه،في موعده،لا يستقدم لحظة ولا يستأخر.ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن فارّ.فإذا فروا فـــإنهم ملاقـــون حـــتفهم المكتوب،في موعده القريب.وكل موعده في الـــدنيا قريب،وكـــل متاع فيها قليل ولا عاصم من اللّه ولا مـــن يحـــول دون نفـــاذ مشيئته.سواء أراد بهم سوءا أم أراد بهم رحمة،ولا مـــولى لهـــم ولا نصير،من دون اللّه،يحميهم ويمنعهم من قـــدر اللّـــه.فالاستســـلام الاستسلام.والطاعة الطاعة.والوفاء الوفاء بالعهد مع اللّه،في السراء والضراء.ورجع الأمر إليه،والتوكل الكامل عليه.ثم يفعل اللّه مـــا يشاء.

ثم يستطرد إلى تقرير علم اللّه بالمعوقين،الذين يقعدون عن الجهـــاد ويدعون غيرهم إلى القعـــود.ويقولـــون لهـــم:«لا مُقـــامَ لَكُـــمْ فَارْجِعُوا»..ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة.وهي – على صـــدقها – تثير الضحك والسخرية مـــن هـــذا النمـــوذج المكـــرور في الناس.صـــورة للجـــبن والانزواء،والفـــزع والهلـــع.في ســـاعة الشدة.والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء.والشح على الخـــير والضن ببذل أي جهد فيه.والجزع والاضطراب عند توهم الخطر

من بعيد..والتعبير القرآني يرسم هذه الصورة في لمسات فنية مبدعة لا سبيل إلى استبدالها أو ترجمتها في غير سياقها المعجز:«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ:هَلُمَّ إِلَيْنا،وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا.أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ.فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ.أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ.أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا.وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ.وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا»..

ويبدأ هذا النص بتقرير علم اللّه المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة.الذين يدعون إخوانهم إلى القعود «وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا» ولا يشهدون الجهاد إلا لماما.فهم مكشوفون لعلم اللّه،ومكرهم مكشوف.

ثم تأخذ الريشة المعجزة في رسم سمات هذا النموذج:«أشحة عليكم» ففي نفوسهم كزازة على المسلمين.كزازة بالجهد وكزازة بالمال،وكزازة في العواطف والمشاعر على السواء.

« فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»..

وهي صورة شاخصة،واضحة الملامح،متحركة الجـــوارح،وهي في الوقت ذاته مضحكة،تثير السخرية من هذا الصنف الجبان،الـــذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخـــوار! وأشد إثارة للسخرية صورهم بعد أن يـــذهب الخـــوف ويجـــيء الأمن:«فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ»..فخرجوا من الجحور،وارتفعت أصواهم بعد الارتعاش،وانتفخـــت أوداجهـــم بالعظمة،ونفشوا بعد الانزواء،وادعوا في غير حياء،ما شـــاء لهـــم الادعاء،من البلاء في القتـــال والفضـــل في الأعمال،والشـــجاعة والاستبسال..ثم هم:«أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ»..

فلا يبذلون للخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان! وهذا النموذج من الناس لا ينقطع في جيل ولا في قبيل.فهـــو موجـــود دائما.وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء.وهو جبان صامت مترو حيثما كان هناك شدة وخوف.وهو شـــحيح بخيل على الخير وأهل الخير،لا ينالهم منهم إلا ســـلاطة اللســـان! «أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمـــالَهُمْ»..فهـــذه هـــي العلـــة الأولى.العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان،ولم تهتد بنوره،ولم تسلك منهجه.«فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ»..ولم ينجحوا لأن عنصـــر

النجاح الأصيل ليس هناك.«وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً»..وليس هنالك عسير على اللّه،وكان أمر اللّه مفعولا..فأما يوم الأحزاب فيمضي النص في تصويرهم صورة مضحكة زرية:«يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا»..فهم ما يزالون يرتعشون،ويتخاذلون،ويخذّلون! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت،وأنه قد ذهب الخوف،وجاء الأمان! «وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ».. يا للسخرية! ويا للتصوير الزري! ويا للصورة المضحكة! وإن يأت الأحزاب يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوما من الأيام.ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية،لا يشاركون أهل المدينة في حياة ولا في مصير.ولا يعلمون - حتى - ما يجري عند أهلها.إنما هم يجهلونه،ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب! مبالغة في البعد والانفصال،والنجاة من الأهوال! يتمنون هذه الأمنيات المضحكة،مع أنهم قاعدون،بعيدون عن المعركة،لا يتعرضون لها مباشرة إنما هو الخوف من بعيد! والفزع والهلع من بعيد! «وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا»..[٣٧]

---

[٣٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٦٠٢)

**١٠- لو أطاعونا ما ماتوا ولا قتلوا:**

قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) } [آل عمران]

مَا أَصَابَكُمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ يَوْمَ أحُد،حِينَمَا التَقَيْتُمْ بِعَدوكُمْ فِي مَيْدَانِ المَعْرَكَة،وَمَا حَلَّ بِكُمْ مِنْ هَزِيمَةٍ وَقَتْلٍ،إِنَّمَا كَانَ بِإِذْنِ اللهِ وَقَدَرِه وَقَضَائِه السَّابِق،الذي جَعَلَ المُسَبَبَات نَتَائِجَ لأسْبَابِهَا،فَكُلُّ عَسْكَرٍ يَعْصِي قَائِدَهُ،وَيَكْشِفُ ظَهْرَهُ لِعَدُوِّهِ يُصَابُ بِمِثْلِ مَا أُصِبْتُمْ بِه،وَأَكْثَر مِنْهُ،وَللهِ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ فِي ذَلِكَ،لأنَّ الشَّدَائِدَ تَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَةِ المُؤْمِنِينَ الذينَ صَبَرُوا وَثَبَتُوا،وَلَمْ يَتَزَلْزَلُوا أَمَام العَدُوِّ.

وَالشَّدَائِدُ تُظهِرُ المُنَافِقِينَ الذينَ تَبَطَّنُوا بِالكُفْرِ،وَأَظْهَرُوا الإِيمَانَ،مِنْ جَمَاعَةِ ابْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُول،الذينَ رَجَعُوا إِلَى المَدِينَةِ قَبْلَ المَعْرَكَة،فَلَحِقَ بِهِمْ رِجَالٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ يَدْعُونَهُمْ لِلعَوْدَةِ إِلَى الصَّفِّ،وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى القِتَالِ وَمُسَاعَدَةِ المُسْلِمِينَ،وَإِكْثَارِ

عَدَدهمْ أمَامَ الْمُشْرِكينَ (أو ادْفَعُوا)،فَرَدُّوا مُتَعَلِّلِينَ:لَوْ نَعْلَمُ أنَّكُـــمْ سَتَلْقَونَ حَرْباً لاتَّبَعْنَاكُمْ،وَلَكنَّنَا فِي قُلُوبِهِمْ يَعْتَقدُونَ غَيْـــرَهُ،وَهُمْ حينَما قَالُوا هَذَا القَوْل كَانُوا فِي تِلْكَ اللَّحْظَة أقرَبَ للْكُفْرِ مِـــنْهُمْ إلَى الإيمَان،وَاللهُ أعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ فِي قُلُوبِهِمْ وَفِي نُفُوسِهِمْ مِـــنَ الكُفْرِ وَالكَيْد لِلْمُسْلمينَ،وَسَيُعَاقبُهُمْ عَلَيه فِي الدُّنْيا وَالآخرَة.

هَؤُلاءِ الْمُنَافقُونَ الذين قَعَدُوا عَنِ الجِهَاد،هُمُ الـــذينَ قَـــالُوا عَـــنْ إخْوَانِهِم الذينَ قُتلُوا فِي المَعْرَكَـــة:لَـــوْ سَـــمِعُوا مَشُـــورَتَنَا فِـــي القُعُود،وَعَدَمِ الخُرُوجِ لَمَا قُتلُوا مَعَ مَنْ قُتلَ.

وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَيهِمْ مُسْتَنْكِراً قَوْلَهُمْ هَذَا:قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ:لَـــوْ كَانَ القُعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ القَتْلِ وَالمَوْت،فَيَنْبَغي عَلَيْكُمْ إلاَّ تَمُوتُوا،وَلَكنَّ المَوْتَ آت لاَ بُدَّ مِنْهُ،فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسكُمُ المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادقِينَ فِي قَوْلكُمْ.[38]

وقوله تعالى:«وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ» .

هو عزاء ومواساة للمسلمين،لما أصابهم فى تلك المعركة.،وأن يـــد المشركين ما كانت لتعلوهم إلا بـــإذن الله،ولأمـــور قـــدّرها الله وأرادها.

[38] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٩،بترقيم الشاملة آليا)

وقوله سبحانه:«وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ» هو كشف لبعض ما أراد الله من هذا المصاب الذي وقع فى المسلمين..

فهو امتحان وبلاء لهم،ليعرفوا ما فى أنفسهم من إيمان وصبر،وليتعاملوا مع الله على قدر ما انكشف من إيمانهم وصبرهم..

وقوله تعالى:«وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ» .

هو وجه آخر من وجوه الحكمة التي تنكشف من وراء هذا الذي حدث فى أحد،وهو أن تنكشف وجوه المنافقين للمؤمنين،فيأخذوا حذرهم منهم،ويعزلوهم عنهم،فإنهم- حيث كانوا- مرض خبيث،يغتال قوى الجماعة التي يندس فيها،ويختلط بها.

وقولة المنافقين هنا،والتي حكاها القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى:«لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ» قولة منافقة خبيثة،تحمل وجوها من الكيد والتوهين لقوى المسلمين،وهم فى مواجهة العدو.

فقد تحمل هذه القولة على أن هذه الجماعة المنافقة لا تعلم أن قتالا سيكون بين المسلمين والمشركين،وأن قريشا،إنما جاءت لتعرض قوّتها،ولتلقى فى قلوب المسلمين الرعب منها،حتى لا يعترضوا تجارتها فى طريقها إلى الشام..

ثم تنصرف بلا قتال..

وقد تحمل هذه القولة أيضا- وهو الوجه الواضح منها- علـــى أن ما بين المسلمين وبين قريش لن يكون حربا بالمعنى المفهـــوم.،لأن الحرب بهذا المعنى تكون بين قوتين متكافئتين،الأمر الذي لا يـــراه المنافقون بين المسلمين وبين قريش.،فالمســـلمون- كمـــا يـــرى المنافقون- فى عدد قليـــل وضـــعف ظـــاهر،وقريش فى جمـــوع كثيرة،وأعداد وفيرة،وسلاح وعتاد يملأ السهل والوعر..

فكيف يكون بين هؤلاء وأولئك حرب؟ إنها ليســـت إلا ضـــربة واحدة بيد قريش حتى ينتهى كل شيء،فكيف ندعى إلى حـــرب ولا حرب؟

إنها عملية انتحار أقرب منها إلى الحرب.،هكذا يقول المنافقون..

وقوله تعالى:«هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِـــنْهُمْ لِلْإِيمـــانِ» ..إدانـــة لهم،وحكم عليهم،بهذه الكلمة المنافقة،التي باعدت بينـــهم وبـــين الإيمان الذي ينسبون أنفسهم إليه،والتي خطت بهم خطوات سريعة إلى الكفر،فكادوا يكونون كفرا خالصا.،

وفى قوله تعالى:«يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ» ما يفضح نفاقهم،ويكشف حقيقة أمرهم.،إنهـــم لا يريدون أن يكونوا فى المجاهدين،ولا يودّون للمسلمين نصـــرا،ولا

يرجون للدّين انتصارا.،وإنما هم يعذرون لأنفسهم بهذه الكلمات المنافقة ليعيشوا بها فى المؤمنين ولا ينقطعوا بهـــا عـــن الكـــافرين والمشركين.

وقوله تعالى:«الَّذينَ قالُوا لإِخْوانهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادقِينَ» هو عرض لمقولـــة أخرى من مقولاتهم المنكرة،وقد ذكرها الله عنهم من قبل فى قوله سبحانه:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذينَ كَفَـــرُوا وَقـــالُوا لإِخْوانهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا مـــا ماتُوا وَما قُتِلُوا» (١٥٦:آل عمران) كما ذكرها القرآن فى قولـــه تعالى:«وَطائفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ باللَّه غَيْرَ الْحَـــقِّ ظَـــنَّ الْجاهليَّة يَقُولُونَ هَلْ لَنا منَ الْأَمْرِ منْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للَّـــه يُخْفُونَ فِي أَنْفُسهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا منَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا» (١٥٤:آل عمران) .[٣٩]

ومن الإعجاز القرآني أن تكون صورة المنافقين التي رسمتها الآيات كثيرا ما تتكرر وتظهر في ظروف النضال مع البغاة والظـــالمين وفي الأزمات الحرجة التي تواجهها الأمم والجماعات في سبيل الحـــق والعقيدة والكرامة،ومن الطبيعي أن يكون ما في الآيات من تشنيع

[٣٩] – التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٣٧)

وتقبيح لا حقين بأصحاب مثل هذه الصورة في كل ظــرف وأن يكون في الآيات من هذا الاعتبار تلقين جليل مستمر المدى.

وفيما حكته الآيات عن دعوة المنافقين إلى القتال في ســبيل الله أو في سبيل الدفاع عن بلدهم وجــوابهم وفي جملــة الَّــذِينَ قَــالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا كوصف لهم دليل قرآني على أنهم لم يخرجوا مع الخارجين إلى لقاء قريش عند جبل أحد[40]

أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعــان،جمع المســلمين وجمــع المشركين في "أحد" من القتل والهزيمة،أنه بإذنه وقضائه وقــدره،لا مرد له ولا بد من وقوعه،والأمر القدري -إذا نفــذ،لم يبــق إلا التسليم له،وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جســيمة،وأنه ليتــبين بذلك المؤمن من المنافق،الذين لما أمروا بالقتال،{وقيل لهم تعــالوا قاتلوا في سبيل الله} أي:ذبا عن دين الله،وحماية له وطلبا لمرضــاة الله،{أو ادفعوا} عن محارمكم وبلدكم،إن لم يكــن لكــم نيــة صالحة،فأبوا ذلك واعتذروا بأن {قالوا لو نعلم قتالا لاتبعنــاكم} أي:لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم،وهم كذبة في هذا،قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين،قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم،وأنهم قــد بــذلوا

[40] - التفسير الحديث (٧/ ٢٦٥)

أموالهم،وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجـــال والعـــدد،وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم،متحرقين على قتالهم،فمن كانت هذه حالهم،كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المـــؤمنين قتال؟ خصوصا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم،هذا من المستحيل،ولكن المنافقين ظنـــوا أن هـــذا العـــذر،يروج علـــى المؤمنين،قال تعالى:{هم للكفر يومئذ} أي:في تلك الحـــال الـــتي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين {أقرب منهم للإيمـــان يقولـــون بأفواههم ما ليس في قلوبهم} وهذه خاصـــة المنـــافقين،يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم.

ومنه قولهم:{لو نعلم قتالا لاتبعناكم} فإنهم قد علمـــوا وقـــوع القتال.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة "ارتكاب أخف المفسدتين لـــدفع أعلاهما،وفعل أدنى المصلحتين،للعجز عن أعلاهما"؛ [لأن المنـــافقين أمروا أن يقاتلوا للدين،فإن لم يفعلـــوا فللمدافعـــة عـــن العيـــال والأوطان]{والله أعلم بما يكتمون} فيبديه لعباده المؤمنين،ويعاقبهم عليه.ثم قال تعالى:{الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا مـــا قتلوا} أي:جمعوا بين التخلـــف عـــن الجهـــاد،وبين الاعتـــراض والتكذيب بقضاء الله وقدره،قال الله ردًّا عليهم:{قل فـــادرءوا}

أي:ادفعوا {عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين} إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا،لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان،وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى.[٤١]

لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه،حملة رايته،وأصحاب عقيدته .،ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم وباستكمال العدة التي في طاقتهم،وببذل الجهد الذي في وسعهم .،فهذه سنة الله،وسنة الله لا تحابي أحدا .،فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور،فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير،فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وإبطال الناموس،فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن،ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس.

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرا كذلك،ولا يضيع هباء،فإن استسلامهم لله،وحملهم لرايته،وعزمهم على طاعته،والتزام منهجه .،من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيرا وبركة في النهاية – بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح – وأن

[٤١] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٥٦)

يجعل من الأخطاء ونتائجهـــا دروســـا وتجارب،تزيـــد في نقـــاء العقيدة،وتمحيص القلوب،وتطهير الصفوف وتؤهل للنصر الموعود وتنتهي بالخير والبركة.

ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته،بل تمدهم بـــزاد الطريق،مهما يمسهم من البرح والألم والضيق في أثناء الطريق.

وبهذا الوضوح والصرامة معا يأخذ الله الجماعة المسلمة وهو يـــرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ويكشف عن السبب القريب مـــن أفعالها كما يكشف عن الحكمة البعيدة من قـــدره – ســـبحانه – ويواجه المنافقين بحقيقة الموت،التي لا يعصـــم منـــها حـــذر ولا قعود:«أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا؟ قُـــلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ،إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..

والمسلمون الذين أصيبوا في أحد بما أصيبوا والذين فقدوا ســـبعين من شهدائهم غير الجراح والآلام التي عانوها في هذا اليوم المريـــر والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصـــابهم،وهم المســـلمون،وهم يجاهدون في سبيل الله،وأعـــداؤهم هـــم المشـــركون أعـــداء الله .،المسلمون الذين أصيبوا بهذه المصيبة،كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها:أصابوا مثلها يوم بـــدر فقتلـــوا ســـبعين مـــن صـــناديد قريش،وأصابوا مثلها يوم أحد في مطلع المعركـــة،حينما كـــانوا

مستقيمين على أمر الله وأمر رسوله - ﷺ - وقبل أن يضعفوا أمام إغراء الغنائم،وقبل أن تهجس في أنفسهم الخواطر التي لا ينبغي أن تهجس في ضمائر المؤمنين! ويذكرهم الله هذا كله،وهو يرد على دهشتهم المتسائلة،فيرجع ما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب:«قُلْ:هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» ..أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر،وأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله - ﷺ - وأنفسكم هي التي خالجتها الأطماع والهواجس،وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله وخطته للمعركة ..،فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم،وتقولون:كيف هذا؟ هو من عند أنفسكم،بانطباق سنة الله عليكم،حين عرّضتم أنفسكم لها،فالإنسان حين يعرّض نفسه لسنة الله لا بد أن تنطبق عليه،مسلما كان أو مشركا،ولا تنخرق محاباة له،فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سنة الله ابتداء! «إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..،ومن مقتضى قدرته أن تنفذ سنته،وأن يحكم ناموسه،وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته،وألا تتعطل سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث.

ومع هذا فقد كان قدر الله من وراء الأمر كله لحكمة يراها،وقدر الله دائما من وراء كل أمر يحدث،ومن وراء كل حركة وكل

نأمة،وكل انبثاقة في هذا الكون كله:«وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ...،» .،لم يقع مصادفة ولا جزافا،ولم يقع عبثا ولا سدى،فكل حركة محسوب حسابها في تصميم هذا الكون ومقدر لها علتها ونتائجها وهي في مجموعها – ومع جريانها وفق السنن والقوانين الثابتة التي لا تنخرق ولا تتعطل ولا تحابي – تحقق الحكمة الكامنة وراءها وتكمل «التصميم» النهائي للكون في مجموعه! إن التصور الإسلامي يبلغ من الشمول والتوازن في هذه القضية،ما لا يبلغه أي تصور آخر في تاريخ البشرية هنالك ناموس ثابت وسنن حتمية .،وهناك وراء الناموس الثابت والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة طليقة.

وهناك وراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمة مدبرة يجري كل شيء في نطاقها .،والناموس يتحكم والسنن تجري في كل شيء – ومن بينها الإنسان – والإنسان يتعرض لهذه السنن بحركاته الإرادية المختارة،وبفعله الذي ينشئه حسب تفكيره وتدبيره،فتنطبق عليه،وتؤثر فيه .،ولكن هذا كله يقع موافقا لقدر الله ومشيئته ويحقق في الوقت ذاته حكمته وتقديره .،وإرادة الإنسان وتفكيره وحركته وفاعليته هي جزء من سنن الله وناموسه يفعل بها ما يفعل،ويحقق بها ما يحقق في نطاق قدره وتدبيره،فليس

شيء منها خارجا على السنن والناموس،ولا مقابلا لها ومناهضـــا لفعلـــها،كما يتصـــور الـــذين يضـــعون إرادة الله وقـــدره في كفة،ويضعون إرادة الإنسان وفاعليته في الكفة المقابلة .،كلا،ليس الأمر هكذا في التصور الإسلامي .،فالإنسان ليس ندا لله،ولا عدوا له كذلك،والله – سبحانه – حين وهب الإنسان كينونته وفكـــره وإرادته وتقديره وتدبيره وفاعليته في الأرض، لم يجعل شيئا من هذا كله متعارضا مع سنته – ســـبحانه – ولا مناهضـــا لمشـــيئته،ولا خارجا كذلك عن الحكمة الأخيرة وراء قدره في هـــذا الكـــون الكبير .،ولكن جعل من سنته وقدره أن يقدر الإنسان ويدبر وأن يتحرك ويؤثر وأن يتعرض لسنة الله فتنطبق عليه وأن يلقى جـــزاء هذا التعرض كاملا من لذة وألم،وراحة وتعب،وسعادة وشـــقاوة .،وأن يتحقق من وراء هذا التعرض ونتيجته،قدر الله المحيط بكـــل شيء،في تناسق وتوازن ..

وهذا الذي وقع في غزوة أحد،مثل لهذا الذي نقوله عن التصـــور الإسلامي الشامل الكامل،فقد عرف الله المسلمين سنته وشرطه في النصر والهزيمة،فخالفوا هم عن سنته وشرطه،فتعرضوا للألم والقرح الذي تعرضوا له .،ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد،فقـــد كـــان وراء المخالفة والألم تحقيق قدر الله في تمييز المؤمنين من المنافقين في

الصف،وتمحيص قلوب المؤمنين وتجلية ما فيهـــا مـــن غـــبش في التصور،ومن ضعف أو قصور .،وهذا بدوره خير ينتهي إليه أمـــر المسلمين – من وراء الألم والضر – وقد نـــالوه وفـــق ســـنة الله كذلك،فمن سنته أن المســـلمين الـــذين يســـلمون بمنـــهج الله ويستسلمون لـــه في عمومه،يعينـــهم الله ويرعاهم،ويجعـــل مـــن أخطائهم وسيلة لخيرهم النهائي – ولو ذاقوا مغبتها مـــن الألم – لأن هذا الألم وسيلة من وسائل التمحيص والتربية والإعداد.

وعلى هذا الموقف الصلب المكشوف تستريح أقـــدام المســـلمين وتطمئن قلوبهم،بلا أرجحة ولا قلق ولا حيرة،وهم يواجهون قدر الله،ويتعاملون مع سنته في الحياة وهم يحسون أن الله يصنع بهم في أنفسهم وفيمن حولهم ما يريده،وأنهم أداة من أدوات القدر يفعل بها الله ما يشاء،وأن خطأهم وصوابهم – وكل ما يلقونه من نتائج لخطئهم وصوابهم – متساوق مع قدر الله وحكمته،وصائر بهم إلى الخير ما داموا في الطريق:«وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ .،وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ،وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا،وَقِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا،قالُوا:لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْنـــاكُمْ،هُمْ لِلْكُفْـــرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمـــانِ،يَقُولُونَ بِـــأَفْواهِهِمْ مـــا لَـــيْسَ فِـــي قُلُوبِهِمْ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ» ..

وهو يشير في هذه الآية إلى موقف عبد الله بن أبي بن سلول،ومن معه،ويسميهم:«الَّذِينَ نافَقُوا» ..

وقد كشفهم الله في هذه الموقعة،وميز الصف الإسلامي منهم،وقرر حقيقة موقفهم يومذاك:«هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ» ..،وهم غير صادقين في احتجاجهم بأنهم يرجعون لأنهم لا يعلمون أن هناك قتالا سيكون بين المسلمين والمشركين،فلم يكن هذا هو السبب في حقيقة الأمر،وإنما هم:«يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» ..،فقد كان في قلوبهم النفاق،الذي لا يجعلها خالصة للعقيدة،وإنما يجعل أشخاصهم واعتبار انها فوق العقيدة واعتبار انها،فالذي كان برأس النفاق - عبد الله بن أبي - أن رسول الله - ﷺ - لم يأخذ برأيه يوم أحد،والذي كان به قبل هذا أن قدومه - ﷺ - إلى المدينة بالرسالة الإلهية حرمه ما كانوا يعدونه له من الرياسة فيهم،وجعل الرياسة لدين الله،ولحامل هذا الدين! ..،فهذا الذي كان في قلوبهم،والذي جعلهم يرجعون يوم أحد،والمشركون على أبواب المدينة،وجعلهم يرفضون الاستجابة إلى المسلم الصادق عبد الله بن عمرو بن حرام،وهو يقول لهم:«تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا» محتجين بأنهم لا يعلمون أن هناك قتالا! وهذا ما فضحهم الله به في هذه الآية:«وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ» ..

ثم مضى يكشف بقية مـــوقفهم في محاولـــة خلخلـــة الصـــفوف والنفوس:«الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ - وَقَعَدُوا - لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا» ..فهم لم يكتفوا بالتخلف - والمعركة على الأبواب - وما يحدثه هذا التخلف من رجة وزلزلة في الصفوف والنفوس،وبخاصـــة أن عبد الله بن أبي،كان ما يزال سيدا في قومه،و لم يكشف لهم نفاقـــه بعد،و لم يدمغه الله بهذا الوصف الذي يهز مقامه في نفوس المسلمين منهم،بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة في قلوب أهـــل الشـــهداء وأصحابهم بعد المعركة،وهم يقولون:«لَوْ أَطاعُونـــا مـــا قُتِلُـــوا» ..فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصـــلحة،ويجعلون مـــن طاعـــة الرسول - ﷺ - واتباعه مغرما ومضرة،وأكثر مـــن هـــذا كلـــه يفســـدون التصـــور الإســـلامي الناصـــع لقـــدر الله،ولحتميـــة الأجل،ولحقيقة الموت والحياة،وتعلقهما بقدر الله وحده .،ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع،الذي يرد كيدهم من ناحية،ويصحح التصور الإسلامي ويجلو عنه الغبش من ناحية:«قُلْ:فَـــادْرَؤُا عَـــنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» .،فـــالموت يصـــيب المجاهـــد والقاعد،والشجاع والجبان،ولا يرده حرص ولا حذر،ولا يؤجلـــه جبن ولا قعود .،والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء .،وهـــذا الواقع هو الذي يجبههم به القرآن الكريم،فيرد كيدهم اللئيم،ويقر

الحق في نصابه،ويثبت قلوب المسلمين،ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين ..

ومما يلفت النظر في الاستعراض القرآني لأحداث المعركة،تأخيره ذكر هذا الحادث – حادث نكول عبد الله ابن أبي ومن معه عن المعركة – وقد وقع في أول أحداثها وقبل ابتدائها .،تأخيره إلى هذا الموضع من السياق ..

وهذا التأخير يحمل سمة من سمات منهج التربية القرآنية .،فقد أخره حتى يقرر جملة القواعد الأساسية للتصور الإسلامي التي قررها وحتى يقر في الأخلاد جملة المشاعر الصحيحة التي أقرها وحتى يضع تلك الموازين الصادقة للقيم التي وضعها .،ثم يشير هذه الإشارة إلى «الَّذِينَ نافَقُوا»،وفعلتهم وتصرفهم بعدها،وقد تهيأت النفوس لإدراك ما في هذه الفعلة وما في هذا التصرف من انحراف عن التصور الصحيح،وعن القيم الصحيحة في الميزان الصحيح .،وهكذا ينبغي أن تنشأ التصورات والقيم الإيمانية في النفس المسلمة،وأن توضع لها الموازين الصحيحة التي تعود إليها لاختبار التصورات والقيم،ووزن الأعمال والأشخاص،ثم تعرض عليها الأعمال والأشخاص – بعد ذلك – فتحكم عليها الحكم المستنير الصحيح،بذلك الحس الإيماني الصحيح ..

ولعل هنالك لفتة أخرى من لفتات المنهج الفريد،فعبد الله بن أبيّ كان إلى ذلك الحين ما يزال عظيما في قومه – كما أسلفنا – وقد ورم أنفه لأن النبي – ﷺ – لم يأخذ برأيه – لأن إقرار مبدأ الشورى وإنفاذه اقتضى الأخذ بالرأي الآخر الذي بدا رجحان الاتجاه إليه في الجماعة – وقد أحدث تصرف هذا المنافق الكبير رجة في الصف المسلم،وبلبلة في الأفكار،كما أحدثت أقاويله بعد ذلك عن القتلى حسرات في القلوب وبلبلة في الخواطر .،فكان من حكمة المنهج إظهار الاستهانة به وبفعلته وبقوله وعدم تصدير الاستعراض القرآني لأحداث الغزوة بذلك الحادث الذي وقع في أولها وتأخيره إلى هذا الموضع المتأخر من السياق،مع وصف الفئة التي قامت به بوصفها الصحيح:«الَّذِينَ نافَقُوا» والتعجيب من أمرهم في هذه الصيغة المجملة:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا؟ »،وعدم إبراز اسم كبيرهم أو شخصه،ليبقى نكرة في:«الَّذِينَ نافَقُوا» كما يستحق من يفعل فعلته،وكما تساوي حقيقته في ميزان الإيمان .،ميزان الإيمان الذي أقامه فيما سبق من السياق ..وبعد أن تستريح القلوب،وتستقر الضمائر على حقيقة السنن الجارية في الكون،وعلى حقيقة قدر الله في الأمور،وعلى حقيقة حكمة الله من وراء التقدير والتدبير .،ثم على حقيقة الأجل المكتوب،والموت

المقدور،الذي لا يؤجله قعود،ولا يقدمه خروج،ولا يمنعه حـــرص ولا حذر ولا تدبير ..[٤٢]

---

**١١- زعم المنافقين أن ترك القتال يمنع الموت والقتل:**

قال تعالى: { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَـــقِّ ظَـــنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّـــهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْـــأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّـــذِينَ كُتِـــبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّـــهُ مَـــا فِـــي صُـــدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّـــدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَـــرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

[٤٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٨٢٣)

بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِـــنَ اللَّـــهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)} [آل عمران:١٥٤ - ١٥٧]
أصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ وَقْعَة أُحُد فَرِيقَيْنِ:

١- فَرِيقاً ذَكَرُوا مَا أَصَابَهُمْ فَعَرَفوا أنَّـــهُ كَـــانَ بِتَقْصِـــيرٍ مِـــنْ بَعْضِهِمْ،وَذَكَرُوا وَعْدَ اللهِ بِنَصْرِهِمْ،فَاسْـــتَغْفَرُوا لِـــذُنُوبِهِمْ،وَوَثِقُوا بِوَعْدِ رَبِّهِمْ،وَأَيْقَنُوا أَنَّهُمْ إِنْ غُلِبُوا فِي هَذِهِ المَرَّةِ،بِسَبَبِ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الفَشَلِ وَالتَّنَازُعِ وَعِصْيَانِ الرَّسُولِ فِيمَا أَمَرَ،فإِنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُمْ بَعْدُ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً،حَتَّى يَسْتَرِدُّوا مَا فَقَدُوا مِنْ قُـــوَّةٍ وَأَمْنٍ،وَلِيَذْهَبَ عَنْهُمْ مَا لَحِقَهُمْ مِنْ خَوْفٍ.

٢- وَفَرِيقاً أَذْهَلَهُمُ الخُوْفُ حَتَّى صَارُوا مَشْغُولِينَ عَنْ كُـــلِّ مَـــا سِوَاهُمْ إذِ الوُثُوقُ بِوَعْدِ اللهِ،وَوَعْدِ رَسُولِهِ،لَمْ يَصِلْ إِلَـــى قَـــرَارَةِ نُفُوسِهِمْ،لأَنَّهُمْ كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ حَقّاً،فَعَظُمَ الخَوْفُ عَلَيْهِمْ،حَتَّى ظَنُّوا بِاللهِ غَيْرَ الظَّنِّ الحَقِّ،إِذْ كَانُوا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ:لَـــوْ كَـــانَ مُحَمَّدٌ نَبِيّاً حَقّاً لَمَا نَصَرَ اللهُ الكُفَّارَ عَلَيهِ،وَهَذَا مَقَالٌ لاَ يَقُولُـــهُ إلاَّ أَهْلُ الشِّرْكِ،وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ عَلَى سَبِيلِ الإِنْكَارِ:هَلْ لَنَا مِنَ النَّصْرِ وَالفَتْحِ وَالظَّفْرِ نَصِيبٌ؟ {هَل لَّنَـــا مِـــنَ الأَمـــرِ مِـــن شَيْءٍ}،وَهُمْ يَعْنُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيءٌ،وَكَانَ مَا حَـــدَثَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ دَلِيلاً،فِي نَظَرِهِمْ،عَلَى أنَّ دِينَ مُحَمَّـــدٍ ﷺ لَـــيْسَ

بحَقٍّ،وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَيهِمْ قَائِلاً:إنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي هُــوَ بِقَــدَرِ اللهِ،وَبحَسَبِ سُنَنِهِ فِي الخَلِيقَةِ وَلِذَلِكَ فَلاَ أَمْرَ لأَحَدٍ غَيْرَ اللهِ.
ثُمَّ يَكْشِفُ تَعَالَى عَنْ خَبِيئَةِ نُفُوسِ هَؤُلاَءِ فَيَقُولُ:إنَّهُمْ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِــهِمْ مَــا لاَ يُبْــدُونَ لَكَ،فَنُفُوسُــهُمْ مَــلأى بالوَسَــاوِسِ وَالهَوَاجِسِ،وَالاعْتِرَاضَاتِ،وَيَقُولُونَ لَوْ كَانَ أَمْرُ النَّصْــرِ وَالظَّفَــرِ بَأَيْدِينَا كَمَا ادَّعَى مُحَمَّدٌ:(وَهُوَ أنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ وَلأَوْلِيائِهِ وَأَنَّهُــمْ هُمُ الغَالِبُونَ) لَمَا غُلِبْنَا،وَلَمَا قُتِلَ مِنَ المُسْلِمِينَ مَنْ قُتِلَ فِــي هَــذِهِ المَعْرَكَةِ،فَهُمْ يَظُنُّونَ أنَّ خِطَّةَ القِيَادَةِ هِيَ التِــي أَوْصَــلَتْهُمْ إلَــى التَّهْلُكَةِ.
وَيَقُولُ تَعَالَى مُصَحِحاً قَوْلَ هَؤُلاءِ وَاعْتِقَادَهُمْ،قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ:إنَّ قَدَرَ اللهِ سَيَقَعُ لاَ مَحَالَةَ،وَلَوْ كَانَ الذِينَ كُتِــبَ عَلَــيهِم القَتْــلُ مَوْجُودِينَ فِي بُيُوتِهِمْ لَخَرَجُوا،دُونَ دَعْوَةٍ مِنْ أَحَدٍ إلَى حَيْثُ قُدِّرَ لَهُمْ أنْ يُقَتَلُوا،لِيُقْتَلُوا،فَهُنَــاكَ أَجَــلٌ مَكْتُــوبٌ لاَ يَسْــتَقْدِمُ وَلاَ يَستَأْخِرُ،وَجَعَلَ اللهُ الأَمْرَ كُلَّهُ ابْتلاءً مِنْهُ،واخْتِبَاراً لِمَا فِي صُــدُورِ المُؤْمِنِينَ وَقُلُوبِهِمْ،وَتَمْحِيصاً لِمَا فِي نُفُوسِهِمْ وَتَطْهِيراً،وَلَيْسَ كَالحَقِّ كَاشِفٌ لِلنُّفُوسِ وَالحَقَائِقِ،وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ،،وَبالأَسْــرَارِ الخَفِيَّةِ.

إنَّ الرُمَاةَ الذينَ أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ بِأَنْ يَثْبُتُوا فِي مَوَاقِعِهِمْ لِيَـــدْفَعُوا المُشْرِكِينَ عَنْ ظُهُورِ المُؤْمنينَ،إنَّمَا تَرَكُوا مَوَاقِعَهُمْ لأنَّ الشَّـــيْطَانَ اسْتَدرَجَهُمْ،وَحَمَلَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ الزَّلَلِ،،وَالخَطِيئَةُ الصَّـــغِيرَةُ إِذَا تَرَخَّصَ فِيها الإنسَانُ سَهَّلَت اسْتِيلاءَ الشَّيْطَانِ عَلَى نَفْسِهِ،فَهُمْ إِنَّمَا انْحَرَفُوا عَنْ أَمَاكِنَهُمْ بِتَأَوُّلٍ مِنْهُمْ،وَظَنّاً مِـــنْهُمْ أنْ لَـــنْ تَكُـــونَ لِلْمُشْرِكِينَ كَرَّةٌ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ،فَلاَ يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَهَابِهِمْ وَرَاءَ المَغَـــانِمِ فَوَاتَ مَنْفَعَةٍ،وَلاَ وُقُوعَ ضَرَرٍ،وَلَكِنَّ هَذَا التَّأَوُّلَ كَانَ سَـــبَباً فِيمَـــا جَرَى مِنَ المَصَائِبِ،وَقَدْ عَفَا اللهُ عَمَّا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الذُنُوبِ فِـــي ذَلِكَ اليَوْمِ،وَجَعَلَ عُقُوبَتَهُمْ فِي الدُّنيا تَرْبِيَّةً وَتَمْحِيصاً،وَاللهُ يَغْفِـــرُ الذُنُوبَ جَمِيعَهَا صَغِيرَهَا وَكَبِيرَها.

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ المُنَافِقِينَ (الكَافِرِينَ) فِي اعْتِقَادِهِمُ الفَاسِدِ،إِذْ يَقُولُونَ عَنْ إِخْوَانِهِم الذينَ قُتِلُوا فِي الحُرُوبِ (كَانُوا غُزًّى)،أَوْ مَاتُوا وَهُمْ فِي أَسْفَارِهِمْ سَعْياً وَرَاءَ الرِّزْقِ فِـــي التِّجَارَةِ (ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ):لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَقَامُوا،وَتَرَكُوا ذَلِكَ لَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ،وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الاعْتِقَادَ فِي نُفُوسِهِمْ لِيَزْدَادُوا أَلَماً وَحَسْرَةً عَلَى مَوْتَاهُمْ،يَزِيدَانِهِم ضَعْفاً،وَيُورِثَانِهُم نَدَماً عَلَى تَمكِينِهِمْ إِيَّاهُمْ مِنَ التَّعَرُّضِ لِمَا ظَنُّوهُ سَبَباً ضَرُورِياً لِلْمَوتِ.

وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالى عَلَيهِمْ قَائلاً:إنَّ المَوْتَ وَالحَيَاةَ بيَدِ اللهِ،وَإلَيهِ يَرْجِـــعُ الأمْرُ،وَعِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذَانِ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ،فَعَلَى المُـــؤْمِنِينَ أنْ لاَ يَكُونُوا مِثْلَ هَؤُلاءِ فِي قَوْلِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ،وَإلاَّ أَصَـــابَهُمُ الضَّـــعْفُ وَالوَهَنُ وَالفَشَلُ؛ وَالإِيمَانُ الصَّادِقُ يَزِيدُ صَاحِبَهُ إيقَانـــاً وَتَسْـــلِيماً بِكُلِّ مَا يَجْرِي بِهِ القَضَاءُ،وَأنَّ مَا وَقَعَ كَانَ لاَ بُدَّ لَهُ مِنَ أنْ يَقَعَ.

فَالَّذِينَ يُقْتَلُونَ وَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ إعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ،وَنَصْـــرِ دِينِهِ،أَوْ يَمُوتُونَ فِي أَثْنَاءِ الجِهَادِ،سَيَجِدُونَ عِنْدَ رَبِهِمْ مَغْفِرَةً تَمْحُو مَا كَانَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ،وَرَحْمَةً وَرِضْوَاناً خَيْراً مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَمَتَّعُ بِـــهِ الكُفَّارُ مِنَ المَالِ وَالمَتَاعِ فِي هَذِهِ الدُّنيا الفَانِيةِ،فَهَذَا ظِلٌّ زَائِلٌ،وَذَاكَ نَعِيمٌ خَالِدٌ.[43]

إن هذا الغمّ الذي «أثاب» الله به أولئك المؤمنين يومئذ، لم يكن إلا دواء،وفى الدواء مرارة.،شأن كل دواء..

ومع هذا،فإن رحمة الله بهم لم تـــدع هـــذه المـــرارة تســـكن فى نفوسهم،وتستقر فى كيانهم.،فما هى إلا أن يفعل الدواء فعلـــه فى تسكين الداء،وفى الذهاب به،حتى تجىء رحمة الله فتنتـــزع تلـــك المرارة وتذهب بها.،وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ» فقد ألقى الله علـــى

[43] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٧،بترقيم الشاملة آليا)

المسلمين وهم فى ذروة المعركة خفقة من نعاس،مرّت بهم مـــرور النسمة العليلة،فملأت قلـــوبهم ســـكينة وأمنا،ومســـحت علـــى أجسامهم بيد السلامة والعافية!! وعجب أن يطوف النعاس بجفن المحارب،والرّماح تنوشه،والسّهام والسيوف تتعاوره.،ولكنه القلب حين يستخفّ بالموت،والإيمان حين يرتفع بالإنسان فـــوق هـــذا التراب الذي تدبّ فوقه قدماه،فإذا هو محلّق فى السماء،يعلو فوق كل خطر،ويسمو فوق كل شدّة!! والطائفة التي تشير إليها الآيـــة الكريمة،والتي أفرغ الله فى قلوبها هذا الأمن،وساق إليها تلك الخفقة من النعاس،هى الطائفة التي ثبتت مع النبي،سواء من كـــان منـــها الذي ثبت طوال المعركة كلّها،أو من انهزم أو فرّ،ثم عاد إلى مكانه من القتال..

وهناك طائفة أخرى،ممن كانوا مع المســـلمين أول الأمر،وعلـــى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول،فإنهم حين أوشـــك القتـــال أن يلتحم بين المســـلمين وبـــين المشـــركين،انحاز بهـــم صـــاحبهم جانبا،متذرّعين بتلك الكلمة المنافقة،التي حكاها القـــرآن الكـــريم عنهم،فى قوله تعالى:«لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ» (١٦٦:آل عمران) وهم يعلمون يقينا أن القتـــال وشـــيك بـــين المســـلمين وبـــين

المشركين،ولكنهم لكى يجدوا لأنفسهم عذرا فى النكوص على أعقابهم قالوا تلك القولة الكاذبة التي حكاها القرآن عنهم..

هذه الطائفة لم يكن لها من هذا الأمن الذي سكبه الله فى قلوب المؤمنين،نصيب،وهى التي أشار الله سبحانه وتعالى إليها بقوله:«وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا» .فهذه الطائفة،طائفة ابن سلول،قد أهمتهم أنفسهم،ولم يكن همّهم الإسلام،ولا الدفاع عنه.،بل طلبوا السلامة لأنفسهم أولا،فتجنبوا المعركة،ووقفوا بعيدا ينتظرون من تدور الدائرة عليه،من الفئتين المقاتلتين.

وفى قوله تعالى:«يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ» اتهام لهؤلاء الذين أهمّتهم أنفسهم،ومواجهة لهم بالجرم الذي ارتكبوه.،إنهم يظنون بالله ظنّ السّوء،فيكذّبون بما وعدهم الله به،وينظرون إلى الله تلك النظرة الباردة التي كانوا ينظرون بها إلى آلهتهم من الأصنام التي كانوا يعبدونها،فيجعلون حساب الله عندهم كحساب هذه الأصنام،حتى لكأن الإسلام لم يغيّر من حالهم فى جاهليتهم شيئا..

وفى قوله تعالى:«يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ» كشف لبعض ظنونهم السيئة بالله.،فهم يسألون فى استبعاد واتهام «هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟» ..

والأمر الذي يسألون أو يتساءلون عنه هو أمر النصر والغلب الذي وعد الله به النبيّ والمؤمنين.،وقد أمر الله الرسول أن يجيبهم بقوله تعالى:«قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه» .،فلو كانوا مؤمنين بالله حقّا لما سألوا هذا السؤال،ولعلموا أن كل شىء بيد الله،وليد الله.،ولكان عليهم أن يستقيموا على ما دعاهم الله إليه من الجهاد،معتصمين بالصبر والتقوى.،ثم ليستقبلوا ما يكون بعد ذلك من نصر أو هزيمة،فإن كان النصر،حمدوا الله وشكروا له،وإن كانت الهزيمة أسلموا أمرهم لله،وصبروا على ما أصابهم.،وقالوا قولة المؤمنين عند لقاء الأمور على وجوهها المختلفة:«كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّه» (٧٨:النساء) وقوله تعالى:«يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ» يكشف للنبيّ عن دخيلة هؤلاء الضعاف الإيمان،وأنهم يقولون فى أنفسهم،أي فيما بين المرء ونفسه،أو فيما بين بعضهم وبعض- يقولون شيئا غير هذا الذي واجهوا به النبي والمسلمين فى قولهم:«هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟» فهذا السؤال على ما فيه

خبث،وضعف إيمان،يمكن أن يقبل منهم،ويحمل على الجهل وسوء الظن بالله..

ولكن الذي يدور فى أنفسهم،ويجرى فيما بينهم،هو اتهام صريح لله،وتجديف عليه،يكاد يكون ردّة عن الإسلام.،وهذا ما فضحه الله منهم وأعلنه على العالمين،فى قوله سبحانه:«يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا» .

إنهم- هنا- يقولونها صريحة،بأن ما وعدهم الله لم يكن إلا غرورا،وأنه لو كان هذا الوعد حقّا،لما كانت هذه الدائرة التي دارت على المسلمين،وذهبت بكثير من النفوس.

وفى قولهم:«ما قُتِلْنا هاهُنا» بإضافة القتل إليهم،مع أنهم لم يقتلوا،بل و لم يقاتلوا- فى هذا القول ما يكشف عن مدى إيمانهم بهذا القول المنكر،وأنه هو القول الذي كان ينبغى أن يكون لسان حال المسلمين جميعا،حسب تصويرهم وتقديرهم.

وقد ردّ الله عليهم بقوله:«قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ» أي أن هذا القتل الذي وقع فى المسلمين لم يكن يعصمهم منه عاصم،فما هو إلا أجل قد انقضى،وموت أنهى هذا الأجل عند انقضائه،على الصورة التي قضى الله أن ينتهى به عليها..

فهؤلاء الذين استشهدوا فى أحد،قد كتب الله عليهم أن يقتلوا فى هذا الوقت،وفى هذا المكان،وأن يكرموا بالشــهادة.،ولــيس فى الوجود قوة تمنع قضاء الله أن ينفذ على الوجه الذي أراده،وقضى به..

وقوله تعالى:«وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِــيُمَحِّصَ مــا فِــي قُلُوبِكُمْ» معطوف على مفهوم من قوله تعالى:«لَــوْ كُنْــتُمْ فِــي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ»

.،أي لو لزمتم بيوتكم،وأصررتم على التزامها،لدعا قضاء الله الذي قضاه على هؤلاء الذين قتلــوا،أن يخرجــوا إلى حيــث التقــوا بالعدوّ،وإلى حيث دارت المعركة،وسقط القتلى،فذلك أمر قضــى الله به فيمن أراد قتله،وليبتلى ما فى قلوبكم أيها المجــدفون علــى الله،من ضعف،وليخرج ما فى صدوركم من نفاق.،فلولا هذه المحنة وما كان فيها،لما ظهر ضــعف إيمانكم،ولمــا اســتعان نفــاقكم للمؤمنين.،وهذا بعض حكمة الابــتلاء الــذي يبتلــى الله بــه المؤمنين،فيما فرضه عليهم من جهاد الكافرين والمنافقين!

وفى قوله تعالى،«وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» بيــان لســعة علــم الله،ونفوذه إلى كل خفىّ.،فعلم- سبحانه- لا يقف عند ظــواهر

الأشياء،ولكنه ينفذ إلى كل ذرة من ذراها،وإلى كل دقيقة من دقائقها.

وذات الشيء:حقيقته،وكنهه،وما اشتمل عليه من أسرار وخفايا،وذات الصدور،حقيقتها،وما تلبّس بها من خفايا وأسرار.،فالصدور وما تكنّ،والضمائر وما تجنّ،يعلم منها الله ما لا يعلم صاحبها.،فسبحانه،سبحانه،وسع كل شيء علما!!

وهنا يلتفت الله سبحانه إلى المؤمنين،بعد أن كشف لهم عن موقف المنافقين،الذين يعيشون معهم بهذا الثوب الرقيق الذي يلبسونه من نسيج الإسلام! وفى هذه اللفتة يرى الله المسلمين جماعة منهم ضعفوا عند لقاء العدو،فتحول بعضهم عن مكانه إلى حيث السّلب والغنائم،وانهزم بعضهم وفرّ مصعّدا فى الجبل.،فهؤلاء جميعا كانوا موضع لوم وعتب بين جماعة المسلمين الذين ثبتوا للعدو،وصمدوا لضرباته.،وقد كثر القول فيهم،وتضاربت الآراء فى إيمانهم! وتلك حال جدير بها أن تمزّق وحدة المسلمين،وأن تفتّ فى عضدهم،بل وأن تذهب ببعض نفوسهم همّا وكمدا.

وتجىء رحمة الله،فتهب هؤلاء الملومين عفوا ومغفرة،وتنقلهم من هذه العزلة الباردة القاتلة،إلى حيث دفء الطمأنينة،وروح السلامة والعافية..

وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» .

فهؤلاء الذين تولوا يوم القتال، إنما كان ذلك منهم لما مكّنوا للشيطان من أنفسهم، ببعض ما كسبوا من سيئات! وهذا يعنى أن المؤمن الحريص على إيمانه، الحارس له من نزعات الهوى، هو فى حصن حصين من أن ينفذ الشيطان إليه، ويوسوس له، ويستولى على زمام أمره..، إن المعاصي التي يرتكبها المؤمن، هى قذائف مدمرة، تدك حصون إيمانه، فيجد الشيطان طريقه إليه، ثم يرميه الرمية القاتلة.

وفى قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ» إعلان كريم، من رب كريم، بالصلح الجميل، والمغفرة الواسعة، التي تصحح إيمان المؤمن، وتعيد بناءه أقوى قوة، وأشدّ صلابة! وفى قوله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» إعلان آخر عن سعة رحمة الله ومغفرته، وأنها تسع العصاة كما تسع الطائعين.، فحلمه يستدعى مغفرته أن تغفر للمذنبين، ولا تأخذهم بما اقترفوا، حتى يعذروا بهذا الصفح وتلك المغفرة، مرة، ومرات..

ونجد فيما كان من رحمة الله ومغفرته لهؤلاء الذين استزلّهم الشيطان- نجد فى هذا،كيف كان علم الله بما فى الإنسان من ضعف،وأنه فى معرض الخطأ والزلل،وذلك مما يقيم له عذره عند الله،فيمنحه عفوه ومغفرته،فإن هفا هفوة،أو زلّ زلة،أقال الله عثرته،وأنهضه من كبوته،وأعاده إلى حظيرة الإسلام،ولو تركه لشرد وضلّ،وهلك..

وقوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا» .

دعوة للمؤمنين أن يتجنبوا وساوس الكافرين الذين لا يؤمنون بقضاء الله،ولا يستسلمون لقدره.،فإذا مات لهم ميت أو قتل لهم قتيل،وهو يجاهد فى سبيل الله- قالوا هذا القول المنكر،الذي حكاه القرآن عنهم:«لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا» .،وهذا ضلال فى الرأى،وكفر بالله،ودفع لقضائه.،فقد مات من مات وقتل من قتل،حين استوفى كل أجله..

وهذا الضلال فى الرأى،إنما هو- فوق أنه كفر بالله- هو مبعث حسرة وندم،تمتلىء بهما قلوب الكافرين كمدا وألما أن ذهب إخوانهم فى هذا الوجه،فكان ذلك سبب موتهم أو قتلهم،ولو أقاموا

معهم ما ماتوا وما قتلوا:«لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ» ولو أنهم عقلوا وآمنوا،لعلموا أن الموت والحياة بيد الله،ليس لأحد شأن أو تدبير فيهما:«وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» قــد أحاط علمه بكل شيء،ونفذ حكمه فى كل شيء! وهذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى التسليم والرضا بالشر والخير،والضرّ والنفع.

والسؤال هنا:كيف يكون منهم قول لأولئك الذين قتلوا أو ماتوا؟

وكيف يسمّون بإخوانهم،وهؤلاء كافرون وأولئك مؤمنون؟

وللإجابة عن الشقّ الثاني من السؤال يتكلف النحاة القــول بــأن اللام فى «لإخوانهم» بمعنى «عن» والتقدير على هذا:أنهم قالوا عن إخوانهم الذين قتلوا أو ماتوا هذا القول:«لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما مــاتُوا وَما قُتِلُوا» وبهذا التخريج أخذ المفسرون.

ونحن لا نقبل أن تخضع كلمات الله لمثل هذا التمحّك الذي يمكن أن يحمل عليه كل كلام..

وننظر فنجد القرآن الكريم يعيد هذا القول مرة أخرى،على لسان هؤلاء القوم.،فيقول تعالى:«الَّذِينَ قالُوا لِــإِخْوانِهِمْ وَقَعَــدُوا لَــوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا» (٦٨:آل عمران) فالتزام القرآن للام التعدية بعد القول فى الموضعين،فيه دلالة على إجراء القول على حقيقتــه،وهو أن يتعدى إلى مفعوله باللام،تقول:قلت له،وقال لى.

وعلى هذا تكون «اللام» فى قوله تعالى:«الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ» – فى الموضعين– هى لام التعدية،وأنهم فعلا قالوا لإخوانهم وتحـــدّثوا إليهم!! ولكن كيف هذا؟ وهؤلاء أحياء وأولئك أموات؟

والجواب– والله أعلم– أن هؤلاء المنـــافقين أو الكـــافرين،حين لم يؤمنوا بالله،و لم يستسلموا لحكمه،ويرضوا بقضائه– قـــد تلقـــوا مصرع من مات منهم فى ميدان القتال،أو فى طريقه إليه،قد تلقوه جزعين مذهولين،كأنهم يستقبلون أمرا لم يكـــن فى حســـابهم أن يقع،لأنهم ينكرون الموت الذي يكون فى غير البيت،أو على غـــير فراش المرض،ويعدّون مثل هذا الموت خيانة لهم ممن مات منـــهم به،فتشتد حسرقم،ويتضاعف ألمهم،ويخرج بهم ذلك إلى شىء من الهلوسة والخبل،فيندبون موتاهم هؤلاء،وينـــادونهم مـــن قريـــب نداءآت منكرة محمومة:ألم أقل لك يا فلان لا تذهب إلى القتـــال؟ إنك لو أطعتنى لما أصابك سوء.،ألم أحذرك يا فلان عاقبة الأمـــر الذي انطلقت إليه؟ إنك لو استمعت إلى نصحى لما قطعت حبـــل حياتك وأنت فى ريعان الصّبا،وفتاء الشباب؟؟

وهكـــذا يظلـــون أيامـــا وليـــالى ينادون،ويناجون،وينـــدبون موتاهم،ويستحضـــــرونهم فى تصـــــوراتهم المريضـــــة،ويرونهم فى مصارعهم تنهشهم السباع وتتخطفهم الطير،فيزداد حزنهم،وتشتد

حسرتهم:«لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ» ! أما الجواب عن الشق الثاني من السؤال،وهو:كيف يسمّون إخوانهم،وهؤلاء كافرون وأولئك مؤمنون- فنقول- والله أعلم:

أولا:أن هؤلاء الكافرين كانوا فى جماعة المؤمنين أولا،فلما كانت وقعة أحد،ورأوا ما رأوا مما أصاب المسلمين،ساء ظنّهم بالله الذي آمنوا به،ثم بلغ بهم سوء الظن إلى الارتداد عن الإسلام- فتسميتهم إخوانا لهؤلاء المؤمنين تذكير لهم بالدين الذي كانوا عليه،ودعوة مجدّدة من الله إليهم ليدخلوا فيه،بعد أن خرجوا منه.

وثانيا:فى هذه التسمية للكافرين بأنهم إخوان لأولئك المؤمنين الذين قتلوا فى سبيل الله- فضح لهم،ومواجهة صريحة بالحكم الذي حكم الله به عليهم وهو أنهم كافرون،وفى هذا ما يجعلهم يتعرفون إلى أنفسهم،ويرون الهاوية التي سقطوا فيها،وهم يقولون هذه المقولات المنكرة- وأنهم إذا كان عند أحدهم شك فى أن هذه المقولات التي يقولها لا تدخل به إلى مداخل الكفر،فليعلم أنه يخدع نفسه،ويضلّلها.،فما هو بعد هذا من المؤمنين..فإما أن يتوب ويرجع إلى الله،وإما أن يمضى فى طريقه،مع ضلاله وكفره..وانظر فى قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا

لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا» .

تجد أن الله سبحانه،قد حكم عليهم أولا بأنهم كافرون،ثم أكّد كفرهم هذا بأنهم كانوا إخوانا لأولئك المؤمنين.،وأنهم منذ قالوا هذا القول ليسوا من الإيمان ولا المؤمنين فى شىء.

وقوله تعالى:«وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» التفات إلى المؤمنين الذين سيقتلون أو سيموتون فى سبيل الله،وأنهم سيلقون مغفرة من الله ورحمة،وأن هذا الذي يلقونه من مغفرة ورحمة خير مما يجمع هؤلاء الكافرون من مال ومتاع..

قوله تعالى:«وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ» .،هو خطاب عام للناس جميعا.،مؤمنين وكافرين- من قتل منهم ومن مات بغير قتل- بأنهم سيحشرون إلى الله،ويقفون بين يديه للحساب،وسيوفّى كل منهم حسابه عند الله.،إن خيرا فخير،وإن شرا فشرّ..[٤٤]

ومع خصوصيتها الزمنية فإن فيها تلقينا مستمر المدى لكل مسلم في كل موقف مماثل وبخاصة في وجوب عدم الاستماع إلى

---

[٤٤] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦١٧)

وساوس الكفار والمنافقين الذين يغتنمون فرصة الظروف والحالات التي يكون المسلمون فيها أمام مواقف حرجة وأزمــات خطــرة فيتقدمون إليهم بأسلوب النصــح الــذي يكــون كالســمّ في الدسم،وفيها في الوقت نفسه معالجة روحية وقوة نافذة من شــأنها أن تمدّ المؤمن بالجرأة والصبر وإيثار ما عند الله على حطام الدنيا في كل موقف مماثل.[٤٥]

ولقد أعقب هول الهزيمــة وذعرها،وهرجهــا ومرجها،ســكون عجيب.سكون في نفوس المؤمنين الذين ثابوا إلى ربهم،وثــابوا إلى نبيهم.لقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين! والتعــبير عن هذه الظاهرة العجيبة يشف ويرق وينعم،حتى ليصور بجرســه وظله ذلك الجو المطمئن الوديع:«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ».

وهي ظاهرة عجيبة تشي برحمة اللّه التي تحف بعبــاده المــؤمنين فالنعاس حين يلــم بالمجهــدين المــرهقين المفزعين،ولــو لحظــة واحدة،يفعل في كيانهم فعل السحر،ويردهم خلقا جديدا،ويسكب في قلوبهم الطمأنينة،كما يسكب في كيانهم الراحة.بطريقة مجهولة الكنه والكيف! أقول هذا وقد جربته في لحظة كرب وشدة.

---

[٤٥] - التفسير الحديث (٧/ ٢٤٧)

فأحسست فيه رحمة اللّه الندية العميقة بصورة تعجز عن وصـــفها العبارة البشرية القاصرة! روى الترمذي عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِى طَلْحَـــةَ قَالَ رَفَعْتُ رَأْسِى يَوْمَ أُحُد فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذ أَحَدٌ إِلاَّ يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النُّعَاسِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (ثُـــمَّ أَنْـــزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا ).[٤٦].

وفي رواية أخرى عَنْ قَتَادَةَ حَدَّثَنَا أَنَسٌ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ غَشِـــيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِى مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُد – قَالَ – فَجَعَلَ سَيْفِى يَسْـــقُطُ مِنْ يَدِى وَآخُذُهُ،وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ .[٤٧]..

أما الطائفة الأخرى فهم ذوو الإيمـــان المزعزع،الـــذين شـــغلتهم أنفسهم وأهمتهم،والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهليـــة،و لم يسلموا أنفسهم كلها للّـــه خالصـــة،و لم يستســـلموا بكليتـــهم لقدره،و لم تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصـــابهم إنمـــا هـــو ابـــتلاء للتمحيص،وليس تخليا من اللّه عن أوليائه لأعدائه،ولا قضاء منه – سبحانه – للكفر والشر والباطل بالغلبة الأخيرة والنصر الكامل:« وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُـــهُمْ،يَظُنُّونَ بِاللَّـــهِ غَيْـــرَ الْحَـــقِّ ظَـــنَّ الْجاهِلِيَّةِ.يَقُولُونَ:هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْء ؟» ..

---

[٤٦] – سنن الترمذى- المكنز [١١ /٢٤٧](٣٢٧٧ ) صحيح

الحجفة:الترس من جلد بلا خشب وهو نوع من السلاح =يميد:يتحرك ويميل

[٤٧] – صحيح البخارى- المكنز [١٥ /٨٣](٤٥٦٢)

إن هذه العقيدة تعلم أصحابها – فيما تعلم – أن ليس لهم في أنفسهم شيء،فهم كلهم للّه وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له،ويتحركون له،ويقاتلون له،بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد،وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره،فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم،كائنا هذا القدر ما يكون.

فأما الذين همهم أنفسهم،وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم،ومحور اهتمامهم وانشغالهم ..فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان.ومن هؤلاء كانت تلك الطائفة الأخرى التي يتحدث عنها القرآن في هذا الموضع.طائفة الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم،فهم في قلق وفي أرجحة،يحسون أنهم مضيعون في أمر غير واضح في تصورهم،ويرون أنهم دفعوا إلى المعركة دفعا ولا إرادة لهم فيها وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير،ويؤدون الثمن فادحا من القتل والقرح والألم ..وهم لا يعرفون اللّه على حقيقته،فهم يظنون باللّه غير الحق،كما تظن الجاهلية.ومن الظن غير الحق باللّه أن يتصوروا أنه – سبحانه – مضيعهم في هذه المعركة،التي ليس لهم من أمرها شيء،وإنما دفعوا إليها دفعا ليموتوا ويجرحوا،واللّه لا ينصرهم ولا ينقذهم إنما يدعهم فريسة لأعدائهم،ويتساءلون:
«هل لنا من الأمر من شيء ؟».

وتتضمن قولتهم هذه الاعتراض على خطــة القيــادة والمعركــة ..ولعلهم ممن كان رأيهم عدم الخروج من المدينة ممن لم يرجعــوا مع عبد اللّه بن أبي ..ولكن قلوبهم لم تكن قد استقرت واطمأنت. وقبل أن يكمل السياق عرض وساوسهم وظنونهم،يبادر بتصحيح الأمر وتقرير الحقيقة فيما يتساءلون فيه،ويرد على قولتهم:«هل لنا من الأمر من شيء ؟».

« قُلْ:إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ» ..فلا أمر لأحد.لا لهم ولا لغيرهم.ومــن قبل قال اللّه لنبيه – ﷺ– «ليس لك من الأمر شيء ».فأمر هــذا الدين،والجهاد لإقامته وتقرير نظامه في الأرض،وهداية القلوب له ..كلها من أمر اللّه،وليس للبشر فيها مــن شـــيء،إلا أن يــؤدوا واجبهم،ويفوا ببيعتهم،ثم يكون ما يشاؤه اللّــه كيــف يكــون! ويكشف كذلك خبيئة نفوسهم قبل أن يكمل عرض وساوســهم وظنونهم:«يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ» ..

فنفوسهم ملأى بالوســاوس والهواجس،حافلــة بالاعتراضــات والاحتجاجات وسؤالهم:«هل لنا من الأمر من شيء » ..يخفــي وراءه شعورهم بأنهم دفعوا إلى مصير لم يختاروه! وأنهــم ضــحية سوء القيادة،وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة ما لاقوا هذا المصير.

«يَقُولُونَ:لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا» ..وهو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة،حينما تصطدم في موقعة بالهزيمة،وحينما تعاني آلام الهزيمة! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن وأن الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع وحين تفتش في ضمائرها فلا ترى الأمر واضحا ولا مستقرا وحين تتخيل أن تصرف القيادة هو الذي ألقى بها في هذه المهلكة،وكانت في نجوة من الأمر لو كان أمرها في يدها! وهي لا يمكن - بهذا الغبش في التصور - أن ترى يد اللّه وراء الأحداث،ولا حكمته في الابتلاء .إنما المسألة كلها - في اعتبار ها - خسارة في خسارة! وضياع في ضياع! هنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله.لأمر الحياة والموت.ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء:«قُلْ:لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ.وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ،وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ،وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» ..

قل لو كنتم في بيوتكم و لم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة،وكان أمركم كله لتقديركم ..لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ..إن هنالك أجلا مكتوبا لا يستقدم ولا يستأخر.وإن هنالك مضجعا مقسوما لا بد أن يجيء إليه صاحبه

فيضجع فيه! فإذا حم الأجل،سعى صاحبه بقدميه إليــه،وجاء إلى مضجعه برجليه،لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم،ولا يدفعه أحــد إلى مضجعه المقسوم! ويا للتعبير العجيــب ..«إِلى مَضَــاجِعِهِمْ» ..فهو مضجع إذن ذلك الرمس الذي تستريح فيه الجنوب،وتسكن فيه الخطى،وينتهي إليه الضاربون في الأرض ..مضجع يأتون إليــه بدافع خفي لا يدركونه ولا يملكونه،إنما هو يــدركهم ويملكهــم ويتصرف في أمرهم كما يشاء.والاستسلام له أروح للقلب،وأهدأ للنفس،وأريح للضمير! إنه قدر اللّه.ووراءه حكمته:

«وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ،وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ» ..

فليس كالمحنة محك يكشــف مــا في الصدور،ويصــهر مــا في القلوب،فينفي عنها الزيف والرياء،ويكشفها على حقيقتــها بــلا طلاء ..فهو الابتلاء والاختيــار لمــا في الصــدور،ليظهر علــى حقيقته،وهو التطهير والتصفية للقلوب،فلا يبقى فيها دخــل ولا زيف.وهو التصحيح والتجلية للتصور فلا يبقى فيــه غــبش ولا خلل:«وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ».

وذات الصدور هي الأسرار الخفيــة الملازمــة للصــدور،المختبئة فيها،المصاحبة لها،التي لا تبارحها ولا تتكشف في النور! واللّه عليم بذات الصدور هذه.ولكنــه – ســبحانه – يريــد أن يكشــفها

للناس،ويكشفها لأصحابها أنفسهم،فقد لا يعلمونها من أنفسهم،حتى تنفضها الأحداث وتكشفها لهم! ولقد علم اللّه دخيلة الذين هزموا وفروا يوم التقى الجمعان في الغزوة.إنهم ضعفوا وتولوا بسبب معصية ارتكبوها فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها،فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ،واستزلهم فزلوا وسقطوا:«إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا.وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ،إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» ..

وقد تكون الإشارة في هذه الآية خاصة بالرماة الذين جال في نفوسهم الطمع في الغنيمة كما جال فيها أن رسول اللّه سيحرمهم أنصبتهم.فكان هذا هو الذي كسبوه،وهو الذي استزلهم الشيطان به

ولكنها في عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة،فتفقد ثقتها في قوتها،ويضعف باللّه ارتباطها،ويختل توازنها وتماسكها،وتصبح عرضة للوساوس والهواجس،بسبب تخلخل صلتها باللّه وثقتها من رضاه! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس،فيقودها إلى الزلة بعد الزلة،وهي بعيدة عن الحمى الآمن،والركن الركين.

ومن هنا كان الاستغفار من الذنب هو أول ما توجه به الرّبيـــون الذين قاتلوا مع النبيين في مواجهة الأعداء.

الاستغفار الذي يردهم إلى اللّه،ويقوي صلتهم به،ويعفي قلـــوبهم من الأرجحة،ويطرد عنها الوساوس،ويسد الثغرة التي يدخل منها الشيطان،ثغرة الانقطاع عن اللّه،والبعد عن حماه.هذه الثغرة الـــتي يدخل منها فيزل أقدامهم مرة ومرة،حتى ينقطع بهم في التيه،بعيدا بعيدا عن الحمى الذي لا ينالهم فيه!

ويحدثهم اللّه أن رحمته أدركتهم،فلم يدع الشيطان ينقطع بهم،فعفا عنهم ..ويعرفهم بنفسه – سبحانه – فهو غفور حليم.لا يطـــرد الخطاة ولا يعجل عليهم مـــتى علـــم مـــن نفوســـهم التطلـــع إليه،والاتصال به و لم يعلم منها التمرد والتفلت والإباق!

ويتم السياق بيان حقيقة قدر اللّـــه في المـــوت والحيـــاة،وزيف تصورات الكفار والمنافقين عن هذا الأمر،مناديـــا الـــذين آمنـــوا بالتحذير من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء.ويـــردهم في النهاية إلى قيم أخرى وإلى اعتبارات ترجح الآلام والتضحيات:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذينَ كَفَرُوا،وَقالُوا لِـــإِخْوانِهِمْ – إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى –:لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَمـــا قُتِلُوا.لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ.وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ.وَاللَّهُ

بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ.وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ»

وظاهر من مناسبة هذه الآيات في سياق المعركة،أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة،والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات ..

وأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء في أحد،مادة لإثارة الحسرة في قلوب أهليهم،واستجاشة الأسى على فقدهم في المعركة - نتيجة لخروجهم - ومما لا شك فيه أن مثل هذه الفتنة والمواجع دامية مما يترك في الصف المسلم الخلخلة والبلبلة.ومن ثم جاء هذا البيان القرآني لتصحيح القيم والتصورات،ورد هذا الكيد إلى نحور كائديه.

إن قول الكافرين:«لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا» ..ليكشف عن الفارق الأساسي في تصور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها،للسنن التي تسير عليها الحياة كلها وأحداثها:سراؤها وضراؤها ..إن صاحب العقيدة مدرك لسنن اللّه،متعرف إلى مشيئة اللّه،مطمئن إلى قدر اللّه.إنه يعلم أن يصيبه إلا ما كتب اللّه له،وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه،وأن ما أخطأه لم يكن

ليصيبه.ومن ثم لا يتلقى الضـــراء بـــالجزع،ولا يتلقـــى الســـراء بالزهو،ولا تطير نفسه لهذه أو لتلك ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا،أو ليستجلب كذا،بعد وقوع الأمـــر وانتهائـــه! فمجال التقدير والتدبير والرأي والمشورة،كله قبل الإقدام والحركة فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير – في حدود علمه وفي حـــدود أمر اللّه ونهيه – فكل ما يقع من النتائج،فهو يتلقـــاه بالطمأنينـــة والرضى والتسليم موقنا أنه وقع وفقا لقدر اللّه وتدبيره وحكمتـــه وأنه لم يكن بد أن يقع كما وقع ولو أنه هو قدم أسبابه بفعلـــه! ..توازن بين العمل والتسليم،وبين الإيجابية والتوكل،يستقيم عليـــه الخطو،ويستريح عليه الضمير ..فأما الذي يفرغ قلبه من العقيدة في اللّه على هذه الصورة المستقيمة،فهو أبدا مستطار،أبدا في قلق! أبدا في «لو» و«لولا» و«يا ليت» و«وا أسفاه»! واللّه – في تربيتـــه للجماعة المسلمة،وفي ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيهـــا – يحذرهم أن يكونوا كالذين كفـــروا.أولئـــك الـــذين تصـــيبهم الحسرات،كلما مات لهم قريب وهو يضـــرب في الأرض ابتغـــاء الرزق،أو قتل في ثنايا المعركة وهو يجاهد:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْـــأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى:لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا» ..يقولونها لفســـاد

تصورهم لحقيقة ما يجري في الكون،ولحقيقة القوة الفاعلة في كـــل ما يجري.فهم لا يـــرون إلا الأســـباب الظـــاهرة والملابســـات السطحية،بسبب انقطاعهم عن اللّه،وعن قدره الجاري في الحياة.

«لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ» ..فإحساسهم بأن خـــروج إخوانهم ليضربوا في الأرض في طلب الرزق فيموتـــوا،أو ليغـــزوا ويقاتلوا فيقتلوا ..إحساسهم بأن هذا الخروج هو علة المـــوت أو القتل،يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج! ولـــو كانوا يدركون العلة الحقيقيـــة وهـــي اســـتيفاء الأجل،ونـــداء المضجع،وقدر اللّه،وسنته في الموت والحياة،ما تحســـروا.ولتلقـــوا الابتلاء صابرين،ولفاءوا إلى اللّه راضين:«وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ» .. فبيده إعطاء الحياة،وبيده استرداد ما أعطى،في الموعد المضـــروب والأجل المرسوم،سواء كان الناس في بيوتهم وبـــين أهلـــهم،أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة.وعنده الجزاء،وعنده العوض،عن خبرة وعن علم وعن بصر:«وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ..» ..

أن الأمر لا ينتهي بالموت أو القتل فهذه ليست نهاية المطاف.وعلى أن الحياة في الأرض ليست خير مـــا يمنحـــه اللّـــه للنـــاس مـــن عطاء.فهناك قيم أخرى،واعتبارات أرقى في ميزان اللّه:«وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَـــةٌ خَيْـــرٌ مِمَّـــا

يَجْمَعُونَ.وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ» ..فالموت أو القتل في سبيل اللّه – بهذا القيد،وبهذا الاعتبار – خير من الحياة،وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار:من مال ومن جاه ومن سلطان ومن متاع.خير بما يعقبه من مغفرة اللّه ورحمته،وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون.وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل اللّه المؤمنين ..إنه لا يكلهم – في هذا المقام – إلى أمجاد شخصية،ولا إلى اعتبارات بشرية.إنما يكلهم إلى ما عند اللّه،ويعلق قلوبهم برحمة اللّه.وهي خير مما يجمع الناس على الإطلاق،وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض ..

وكلهم مرجوعون إلى اللّه،محشورون إليه على كل حال.ماتوا على فراشهم أو ماتوا وهم يضربون في الأرض،أو قتلوا وهم يجاهدون في الميدان.فما لهم مرجع سوى هذا المرجع وما لهم مصير سوى هذا المصير ..والتفاوت إذن إنما يكون في العمل والنية وفي الاتجاه،والاهتمام ..أما النهاية فواحدة:موت أو قتل في الموعد المحتوم،والأجل المقسوم.ورجعة إلى اللّه وحشر في يوم الجمع والحشر ..ومغفرة من اللّه ورحمة،أو غضب من اللّه وعذاب ..فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس.وهو ميت على كل حال! بذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة،وحقيقة قدر

اللّه.وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القـــدر وإلى ما وراء القدر من حكمة،وما وراء الابـــتلاء مـــن جـــزاء ..وبذلك تنتهي هذه الجولة في صميم أحـــداث المعركـــة،وفيما صاحبها من ملابسات ..[٤٨]



[٤٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٧٩٩)

## المبحث السادس

## الأحاديث الواردة في ذمّ التخلف عن الجهاد

**فرح المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله:**

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ،وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ،وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا»،فَنَزَلَتْ: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ} [آل عمران:١٨٨] "[٤٩]

يُنَبِّهُ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ إلى حَالٍ آخَرَ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الكِتَابِ،وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا مِنَ التَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ لِلكِتَابِ،وَيَرَونَ لأَنْفُسِهِمْ،شَرَفاً وَفَضْلاً بِأَنَّهُمْ أَئِمَّةٌ يُقْتَدَى بِهِمْ،وَكَانُوا يُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدُوا بِأَنَّهُمْ حُفَّاظُ الكِتَابِ وَمُفَسِّرُوهُ.وَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ،وَإِنَّمَا فَعَلُوا نَقِيضَهُ،إِذْ

[٤٩] - صحيح البخاري (٦/ ٤٠)(٤٥٦٧) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٤٢)٧ - (٢٧٧٧)
[ ش (أتوا) فعلوا،(بمفازة) بمنجاة]

حَوَّلُوهُ منَ الهدَايَّة إلى مَا يُوافقُ أهْواءَ الحُكَّامِ وَالعَامَّة.وَقيلَ إنَّ هَذه الآيَةَ نَزَلَتْ في بَعْضِ المُنَافقينَ الذينَ كَانُوا يَتَخَلَّفُونَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ إذا غَزَا،فَإذا عَادَ منَ الغَزْوِ اعْتَذَرُوا إليه،وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أنْ يُحْمَدُوا بمَا لَمْ يَفْعَلُوا .وَيَقُولُ تَعَالَى إنَّ هَؤُلاءِ الذينَ يَفْعَلُونَ ذَلكَ لَيْسُوا نَاجينَ منَ العَذَابِ،بَلْ لاَ بُدَّ منْ أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ عَذَاباً أَليماً.[50]

**التعلق بالدنيا والزرع والضرع وغيره وترك الجهاد في سبيل الله:**

عَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ،وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ،سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[51]

قَوْلُهُ:(وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ) الْمُرَادُ الاشْتِغَالُ بِالْحَرْثِ،وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى «وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ» وَقَدْ حُمِلَ هَذَا عَلَى الاشْتِغَالِ بِالزَّرْعِ فِي زَمَنٍ يَتَعَيَّنُ فِيهِ الْجِهَادُ،قَوْلُهُ:(وَتَرَكُوا الْجِهَادَ) أَيْ:الْمُتَعَيَّنَ فِعْلُهُ قَوْلُهُ:(ذُلًّا) بِضَمِّ الذَّالِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِهَا

---

[50] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٨١،بترقيم الشاملة آليا)

[51] – سنن أبي داود (٣/ ٢٧٤)(٣٤٦٢ ) صحيح

تبايعتم بالعينة: أن يبيع شيئا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري،ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقدا.

أَيْ:صَغَارًا وَمَسْكَنَةً،وَمِنْ أَنْوَاعِ الذُّلِّ:الْخَرَاجُ الَّذِي يُسَلِّمُونَهُ كُلَّ سَنَةٍ لِمُلَّاكِ الْأَرْضِ،وَسَبَبُ هَذَا الذُّلِّ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي فِيهِ عِزُّ الْإِسْلَامِ وَإِظْهَارُهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ عَامَلَهُمْ اللَّهُ بِنَقِيضِهِ،وَهُوَ إنْزَالُ الذِّلَّةِ فَصَارُوا يَمْشُونَ خَلْفَ أَذْنَابِ الْبَقَرِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَرْكَبُونَ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ الَّتِي هِيَ أَعَزُّ مَكَان،قَوْلُهُ:(حَتَّى تَرْجِعُوا إلَى دِينِكُمْ) فِيهِ زَجْرٌ بَلِيغٌ؛ لِأَنَّهُ نَزَّلَ الْوُقُوعَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ مَنْزِلَةَ الْخُرُوجِ مِنَ الدِّينِ"[٥٢]

وعن الْوَلِيدَ بْنِ أَبِي الْوَلِيدِ،قَالَ:كُنْتُ بِمَكَّةَ وَعَلَيْهَا عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُرَاقَةَ أَمِيرًا،فَسَمِعْتُهُ يَخْطُبُهُمْ،فَقَالَ:يَا أَهْلَ مَكَّةَ،مَا لَكُمْ قَدْ أَقْبَلْتُمْ عَلَى عِمَارَةِ الْبَيْتِ أَوِ الطَّوَافِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا سَوَّاقُو الْمُجَاهِدِينَ،إِنِّي سَمِعْتُ مِنْ أَبِي،عَنِ ابْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" مَنْ أَظَلَّ غَازِيًا أَظَلَّهُ اللهُ،وَمَنْ جَهَّزَ غَازِيًا حَتَّى يَسْتَقِلَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ،وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ "[٥٣]

**النهي عن التولي يوم الزحف:**

---

[٥٢] - نيل الأوطار (٥/ ٢٤٦)

[٥٣] - أخبار مكة للفاكهي (٣/ ١٨٠)(١٩٤٣ ) صحيح

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ قَالَ:قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ:اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ،قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ:لَا تَقُلْ نَبِيٌّ،لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ،فَأَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ،فَقَالَ لَهُمْ:«لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا،وَلَا تَسْرِقُوا،وَلَا تَزْنُوا،وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ،وَلَا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ،وَلَا تَسْحَرُوا،وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا،وَلَا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً،وَلَا تَوَلَّوْا يَوْمَ الزَّحْفِ،وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً يَهُودُ أَنْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ» فَقَبَّلُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ،وَقَالُوا:نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ قَالَ:فَمَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ قَالُوا:إِنَّ دَاوُدَ دَعَا أَنْ لَا يَزَالَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ،وَإِنَّا نَخَافُ إِنِ تَبِعْنَاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا يَهُودُ ".[٥٤]

**التخلف جائز للمعذورين فقط:**

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ،أَنَّهُ قَالَ:رَأَيْتُ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ جَالِسًا فِي المَسْجِدِ،فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ،فَأَخْبَرَنَا أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ:" أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ:{لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ} [النساء:٩٥] {وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء:٩٥] "،قَالَ:فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهَادَ لَجَاهَدْتُ - وَكَانَ

[٥٤] - السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٤٩)(٣٥٢٧ ) ضعيف

رَجُلًا أَعْمَى - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ،وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي،فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي،ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [النساء:٩٥][٥٥]

**الحرب لن تضع أوزارها حتى قيام الساعة:**

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ،قَالَ:فُتِحَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتْحٌ فَأَتَيْتُهُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،سُيِّبَتِ الْخَيْلُ،وَوَضَعُوا السِّلَاحَ،فَقَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا،وَقَالُوا:لَا قِتَالَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كَذَبُوا،الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ،الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ،إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يُزِيغُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ يُقَاتِلُونَهُمْ،وَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ،وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ»[٥٦]

**ترك الجهاد في سبيل الله يسبب العذاب العام:**

---

[٥٥] - صحيح البخاري (٤/ ٢٥)(٢٨٣٢ )

[ ش (يملها) يمليها أي يقرؤها عليه ليكتبها،(ترض) من الرض وهو الدق والجرش،(سري عنه) كشف وأزيل ما يجده من ثقل الوحي]

[٥٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٢٩٦)(٧٣٠٧ ) صحيح

(أذال) الإذالة: الإهانة والابتذال.=(أوزراها) الأوزار: الأثقال،ومعنى «حتى تضع الحرب أوزارها» أي: ينقضي أمرها،وتخف أثقالها،ولا يبقى قتال.=(يزيغ) زاغ الشيء يزيغ: إذا مال.=(نواصي) جمع ناصية،وهو شعر مقدم الرأس.=(عقر الدار) أصلها بالفتح،وهو محلة القوم،وأهل المدينة يقولون: عقر الدار،بالضم.جامع الأصول (٢/ ٥٧٠)

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ»[٥٧]

**ترك الجهاد في سبيل الله يؤدي للفقر:**

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ؛ قَالَ:لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَعَدَ الْمِنْبَرَ،فَنَزَلَ مِرْقَاةً مِنْ مَقْعَدِ النَّبِيِّ ﷺ،فَحَمَدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:اعْلَمُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التُّقَى،وأن أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ،وَإِنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَإِنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَحْسَنْتُ؛ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ زِغْتُ؛ فَقَوِّمُونِي،وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا،وَلا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللهُ بِالْفَقْرِ،وَلا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ؛ إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْبَلاءِ؛ فَأَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ؛ فَلا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ،أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ"[٥٨]

وعن بَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ،قَالَ:خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي،وَإِنْ

---

[٥٧] – المعجم الأوسط (٤/ ١٤٨)(٣٨٣٩ ) حسن

[٥٨] – المجالسة وجواهر العلم (٤/ ١١٣)(١٢٩٠ ) حسن

أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،الصِّدْقُ أَمَانَةٌ،وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ،الضَّعِيفُ فِيكُمُ الْقَوِيُّ عِنْدِي حَتَّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،وَالْقَوِيُّ فِيكُمُ الضَّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالْفَقْرِ،وَلَا ظَهَرَتْ - أَوْ قَالَ:شَاعَت - الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا عَمَّمَهُمُ الْبَلَاءُ،أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ،قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ»[٥٩]

**ترك الجهاد في سبيل الله يؤدي للذل والهوان:**

عن مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،قَالَ:لما ولي أبو بكر أمر الناس بعد رَسُول الله ﷺ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه،ثم قَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ هَذَا،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي،الصِّدْقُ أَمَانَةٌ،وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ،أكيس الكيس التقي،وأنوك النوك الفجور،وَالضَّعِيفُ فِيكُمُ الْقَوِيُّ عِنْدِي حَتَّى آخذ له الحق،وَالْقَوِيُّ عندكم الضَّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الحق مِنْهُ،لاَ يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي الله إِلاَّ ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالْذُّلِ،وَلاَ تَشِيْعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلاَّ عَمَّهُمُ

---

[٥٩] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٣٦)(٢٠٧٠٢ ) حسن لغيره

اللَّهُ بِالْبَلاَءِ،أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلاَ طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ،قُومُوا إِلَى صَلاَتِكُمْ.[٦٠]

**من ترك الغزو وتجهيز الغزاة في سبيل الله أصابه الله بقارعة:**

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا،أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ»«قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٦١]

مَنْ لَمْ يَغْزُ):أَيْ:حَقِيقَةً (وَلَمْ يُجَهِّزْ غَازِيًا):أَيْ:لَمْ يُهَيِّءْ أَسْبَابَ غَازٍ (أَوْ يَخْلُفْ):بِالْجَزْمِ وَضَمِّ اللَّامِ عَلَى الْمَنْفِيِّ ؛أَيْ:لَمْ يَخْلُفْ (غَازِيًا فِي أَهْلِهِ):وَالظَّاهِرُ أَنَّ أَوْ لِلتَّنْوِيعِ وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ وَمَا قَبْلَهُ فِي رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْغَزْوِ الْحُكْمِيِّ،وَقَوْلُهُ:(بِخَيْرٍ):قَيْدٌ لِلْأَخِيرِ،قَالَ الطِّيبِيُّ مُتَعَلِّقٌ بِيَخْلُفْ حَالٌ مِنْ فَاعِلِهِ أُتِيَ بِهِ صِيَانَةً عَمَّا عَسَى أَنْ يَنْوِيَ الْخِيَانَةَ فِيهِمْ اه،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَيْدًا لِلْكُلِّ،وَالْمُرَادُ بِهِ نِيَّةُ الْخَيْرِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْإِخْلَاصِ قَالَ الطِّيبِيُّ قَوْلُهُ:أَوْ يَخْلُفْ هُوَ عَطْفٌ عَلَى يُجَهِّزْ،وَإِنَّمَا لَمْ يُعِدِ الْجَازِمَ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ اسْتِقْلَالُهُ،وَلِيُؤْذَنَ بِأَنَّ تَجْهِيزَ الْغَازِي وَكَوْنَ تَخْلِيفِ الْغَازِي فِي أَهْلِهِ لَيْسَ بِمَثَابَةِ الشُّخُوصِ بِنَفْسِهِ إِلَى الْغَزْوِ،ثُمَّ جَوَابُ الشَّرْطِ قَوْلُهُ:(أَصَابَهُ اللَّهُ

---

[٦٠] - مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي (ص: ٤٣)(٩) حسن مرسل

[٦١] - سنن أبي داود (٣/ ١٠)(٢٥٠٣) حسن

بقَارِعَة):أَيْ:بشدَّة منَ الشَّدَائد وَالْبَاءُ فيه للتَّعْديَة ؛أَيْ:ببَليَّة تَقْرَعُهُ وَتُهْلكُهُ وَتَصْرَعُهُ وَتَدُقُّهُ،وَلذَا سُمِّيَت الْقيَامَةُ بالْقَارِعَة (قَبْلَ يَوْمِ الْقيَامَة.[62]

**من لقي الله بغير جهاد لقيه وفي دينه ثلمة:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«مَنْ لَقيَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَثَرٍ منْ جهَاد لَقيَ اللَّهَ وَفيه ثُلْمَةٌ»[63]

وَالْمُرَادُ به هُنَا الْعَلَامَةُ ؛أَيْ مَنْ مَاتَ بغَيْر عَلَامَة منْ عَلَامَات الْغَزْو منْ جرَاحَة،أَوْ غُبَارِ طَرِيق،أَوْ تَعَب بَدَن،أَوْ صَرْف مَال،أَوْ تَهْيئَة أَسْبَاب وَتَعْبيَة أَسْلحَة (لَقيَ اللَّهَ):أَيْ جَاءَ يَوْمَ الْقيَامَة (وَفيه ثُلْمَةٌ):بضَمٍّ الْمُثَلَّثَة وَسُكُون اللَّام ؛أَيْ:خَلَلٌ وَنُقْصَانٌ بالنِّسْبَة إِلَى كَمَال سَعَادَة الشَّهَادَة وَمُجَاهَدَة الْمُجَاهَدَة،وَيُمْكنُ أَنْ يَكُونَ الْحَديثُ مُقَيَّدًا بمَنْ فُرِضَ عَلَيْه الْجهَادُ،وَمَاتَ منْ غَيْر الشُّرُوعِ فِي تَهْيئَة الْأَسْبَاب الْمُوَصِّلَة إِلَى الْمُرَاد،وَقَالَ الطِّيبِيُّ قَوْلُهُ:منْ جهَاد صفَةُ أَثَرٍ وَهيَ نَكرَةٌ في سيَاق النَّفْي،فَتَعُمُّ كُلَّ جهَاد مَعَ الْعَدُوِّ وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَان،وَكَذَلكَ الْأَثَرُ بحَسَب اخْتلَاف الْمُجَاهَدَة قَالَ تَعَالَى:{سيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود} [الفتح:٢٩]

---

[62] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٤)

[63] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٨٩)(١٦٦٦ ) حسن لغيره

الثُّلْمَةُ هَاهُنَا مُسْتَعَارَةٌ لِلنُّقْصَانِ،وَأَصْلُهَا أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي نَحْوِ الْجِدَارِ،وَلَمَّا شُبِّهَ الْإِسْلَامُ بِالْبِنَاءِ فِي قَوْلِهِ:" بُنِيَ «الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» " جُعِلَ كُلُّ خَلَلٍ فِيهِ وَنُقْصَانٍ ثُلْمَةً عَلَى سَبِيلِ التَّرْشِيحِ،وَهَذَا ؛أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ وَيَنْصُرُهُ حَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ يَعْنِي الْآتِي،وَأَمَّا الْأَثَرَانِ فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ،(رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ،وَابْنُ مَاجَهْ)[٦٤]

**ترك الجهاد في سبيل الله بغير عذر شرعي يؤدي للنفاق:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ،وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ،مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[٦٥]

وَالْمَعْنَى لَمْ يَعْزِمْ عَلَى الْجِهَادِ وَلَمْ يَقُلْ:يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مُجَاهِدًا،وَقِيلَ وَلَمْ يُرِدِ الْخُرُوجَ،وَعَلَامَتُهُ فِي الظَّاهِرِ إِعْدَادُ آلَتِهِ،قَالَ تَعَالَى:{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً} [التوبة:٤٦] وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ:(مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ):أَيْ:نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ ؛أَيْ:مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ،وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ،وَقِيلَ:هَذَا كَانَ مَخْصُوصًا بِزَمَانِهِ

---

[٦٤] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٨٣)

[٦٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧)١٥٨ - (١٩١٠)

[ ش والمراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق]

- ﷺ - وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ عَامٌّ وَيَجبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمنٍ أَنْ يَنْويَ الْجهَادَ إِمَّا بطْريقِ فَرْضِ الْكفَايَة،أَوْ عَلَى سَبيلِ فَرْضِ الْعَيْنِ،إِذَا كَانَ النَّفيرُ عَامًّا،وَيُسْتَدَلُّ بظَاهره لمَنْ قَالَ:الْجهَادُ فَرْضُ عَـــيْنٍ مُطْلَقًـــا،وَفي شَرْحِ مُسْلمٍ للنَّوَويِّ،قَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ الْمُبَارَك:نَرَى أَنَّ ذَلكَ عَلَـــى عَهْد رَسُول اللَّه - ﷺ - قَالَ:وَهَذَا الَّذي قَالَـــهُ ابْـــنُ الْمُبَـــارَك مُحْتَمَلٌ،وَقَدْ قَالَ غَيْرُهُ إِنَّهُ عَامٌّ،وَالْمُرَادُ أَنَّ مَنْ فَعَـــلَ فَقَـــدْ أَشْـــبَهَ الْمُنَافقينَ الْمُتَخَلِّفينَ عَنِ الْجهَاد في هَذَا الْوَصْف،فَإِنَّ تَرْكَ الْجهَاد أَحَدُ شُعَب النِّفَاق،وَفيه أَنَّ مَنْ نَوَى فعْلَ عبَادَة فَمَاتَ قَبْلَ فعْلهَا لَا يُتَوَجَّهُ عَلَيْه منَ الذَّمِّ مَا يُتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ مَـــاتَ وَلَـــمْ يُنْوهَا،وَقَـــد اخْتَلَفَتْ أَصْحَابُنَا فيمَنْ تَمَكَّنَ منَ الصَّلَاة في أَوَّل وَقْتهَا فَأَخَّرَهَـــا بنيَّة أَنْ يَفْعَلَهَا وَمَاتَ،أَوْ أَخَّرَ الْحَجَّ كَذَلكَ،قيلَ:يَأْثَمُ فيهمَا،وَقيلَ لَا يَأْثَمُ فيهمَا،وَقيلَ:يَأْثَمُ في الْحَجِّ دُونَ الصَّلَاة اه،وَالْـــأَخيرُ مُوَافـــقٌ لمَذْهَبنَا.[66]

وعن نَجْدَةَ بْنِ نُفَيْعٍ،قَالَ:سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَـــا،عَنْ قَوْلِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ {إِلَّا تَنْفرُوا} [التوبة:٣٩] يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَليمًـــا

[66] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٠)

قَالَ:«اسْتَنْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ،فَتَثَاقَلُوا،فَأُمْسِكَ عَنْهُمُ الْمَطَرُ،وَكَانَ عَذَابُهُمْ»[67]

**الجبن والخور من صفات المتخلفين عن الجهاد:**

عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ:«كَرَمُ الْمُؤْمِنِ تَقْوَاهُ،وَدِينُهُ حَسَبُهُ،وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ،وَالْجُرْأَةُ وَالْجُبْنُ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللَّهُ حَيْثُ شَاءَ،فَالْجَبَانُ يَفِرُّ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ،وَالْجَرِيءُ يُقَاتِلُ عَمَّا لَا يَئُوبُ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ،وَالْقَتْلُ حَتْفٌ مِنَ الْحُتُوفِ،وَالشَّهِيدُ مَنِ احْتَسَبَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ»[68]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كَرَمُ الْمُؤْمِنِ تَقْوَاهُ،وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ،وَنَسَبُهُ دِينُهُ،وَالْجُبْنُ وَالْجُرْأَةُ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللَّهُ حَيْثُ يَشَاءُ»[69]

**ترك الجهاد والإنفاق في سبيل الله يؤدي للتهلكة:**

عن أَسْلَمَ أبي عِمْرَانَ،مَوْلًى لِكِنْدَةَ قَالَ:«كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ،فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا،مِنَ الرُّومِ،وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِثْلُهُ،أَوْ أَكْثَرُ،وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ،حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ،فَصَاحَ بِهِ

---

[67] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ١١٤)(٢٥٠٤ ) ضعيف

[68] - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٦٣)(٣٥) فيه انقطاع

[69] - مسند الشهاب القضاعي (١/ ١٩٧)(٢٩٧ ) فيه ضعف

النَّاسُ،وَقَالُوا:سُبْحَانَ اللَّه تُلْقي بيَدكَ إِلَى التَّهْلُكَة،فَقَامَ أَبُو أَيُّـوبَ الْأَنْصَاريُّ،فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذه الْآيَـةَ،عَلَى هَـذَا التَّأْويل،إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذه الْآيَةُ،فينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَار إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّـهُ الْإِسْلَامَ،وَكَثَّرَ نَاصريه،قُلْنَا بَعْضُنَا لبَعْض سرًّا،منْ رَسُول اللَّه ﷺ:إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ،وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ،وَكَثَّرَ نَاصريه،فَلَوْ أَقَمْنَا في أَمْوَالنَا،فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ منَّا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبيِّه ﷺ،يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا {وَأَنْفقُوا في سَـبيل اللَّـه،وَلَا تُلْقُـوا بأَيْـديكُمْ إِلَـى التَّهْلُكَة،وَأَحْسنُوا إنَّ اللَّـهَ يُحبُّ الْمُحْسنينَ} [البقـرة:١٩٥]،فَكَانَت التَّهْلُكَـةُ الْإِقَامَـةَ فـي أَمْوَالنَا،وَإِصْلَاحَهَا،وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ،قَـالَ:» وَمَـا زَالَ أَبُـو أَيُّـوبَ شَاخصًا،في سَبيل اللَّه،حَتَّى دُفنَ بأَرْض الرُّوم «[٧٠]

وعَنْ أَسْلَمَ أَبي عمْـرَانَ قَـالَ:غَزَوْنَـا مـنَ الْمَدينَـة نُريـدُ الْقُسْطَنْطينيَّةَ،وَعَلَى الْجَمَاعَة عَبْـدُ الـرَّحْمَن بْـنُ خَالـد بْـن الْوَليد،وَالرُّومُ مُلْصقُو ظُهُورهمْ بحَائط الْمَدينَة،فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَـى الْعَدُوِّ،فَقَالَ النَّاسُ:مَهْ مَهْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،يُلْقي بيَدَيْه إِلَى التَّهْلُكَة،فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ:" إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذه الْآيَةُ فينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَار لَمَّا نَصَرَ اللَّـهُ

---

[٧٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٩)(٤٧١١ ) صحيح

(شاخِصاً) : شخَص الرجل من بلد إلى بلد: إذا انتقل إليه،والمراد به: لم يزل مُسَافراً.

نَبِيَّهُ،وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ قُلْنَا:هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا "،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فَالْإِلْقَاءُ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ "،قَالَ أَبُو عِمْرَانَ:«فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ»[٧١]

**أفضل العمل بعد الصلاة الجهاد في سبيل الله:**

عن ابْنِ عَوْنٍ،قَالَ:كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ:مَا أَقْعَدَ ابْنَ عُمَرَ عَنِ الْغَزْوِ،وَعَنِ الْقَوْمِ إِذَا غَزَوْا،بِمَا يَدْعُونَ الْعَدُوَّ قَبْلَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ ؟ وَهَلْ يَحْمِلُ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ فِي الْكَتِيبَةِ بِغَيْرِ إِذْنِ إِمَامِهِ ؟ فَكَتَبَ إِلَيَّ:إِنَّ ابْنَ عُمَرَ قَدْ كَانَ يَغْزُو وَلَدُهُ،وَيَحْمِلُ عَلَى الظَّهْرِ،وَكَانَ يَقُولُ:إِنَّ أَفْضَلَ الْعَمَلِ بَعْدَ الصَّلاَةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى،وَمَا أَقْعَدَ ابْنَ عُمَرَ عَنِ الْغَزْوِ إِلاَّ وَصَايَا لِعُمَرَ،وَصِبْيَانٌ صِغَارٌ وَضَيْعَةٌ كَثِيرَةٌ،وَقَدْ أَغَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ يَسْقُونَ عَلَى نَعَمِهِمْ،فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ،وَسَبَى سَبَايَاهُمْ،وَأَصَابَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ قَالَ:فَحَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ ابْنُ عُمَرَ،وَكَانَ

[٧١] - سنن أبي داود (٣/ ١٣)(٢٥١٢ ) صحيح

فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ،وَإِنَّمَا كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي أَوَّلِ الإِسْلاَمِ،وَأَمَّا الرَّجُلُ فَلاَ يَحْمِلُ عَلَى الْكَتِيبَةِ إِلاَّ بِإِذْنِ إِمَامِهِ.[٧٢]

### أسباب تخلف عثمان رضي الله عنه الجهاد في بدر

وعَنْ شَقِيقٍ،قَالَ:لَقِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ،فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ:مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَفَوْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:أَبْلِغْهُ أَنِّي لَمْ أَفِرَّ يَوْمَ عَيْنَيْنِ – قَالَ عَاصِمٌ:يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ – وَلَمْ أَتَخَلَّفْ يَوْمَ بَدْرٍ،وَلَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ،قَالَ:فَانْطَلَقَ فَخَبَّرَ ذَلِكَ عُثْمَانَ،قَالَ:فَقَالَ:أَمَّا قَوْلُهُ:إِنِّي لَمْ أَفِرَّ يَوْمَ عَيْنَيْنِ،فَكَيْفَ يُعَيِّرُنِي بِذَنْبٍ وَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُ،فَقَالَ:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} [آل عمران:١٥٥]،وَأَمَّا قَوْلُهُ:إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدْرٍ،فَإِنِّي كُنْتُ أُمَرِّضُ رُقَيَّةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى مَاتَتْ وَقَدْ ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَهْمِي،وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَهْمِهِ فَقَدْ شَهِدَ،وَأَمَّا قَوْلُهُ:إِنِّي لَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ،فَإِنِّي لَا أُطِيقُهَا وَلا هُوَ،فَائْتِهِ فَحَدِّثْهُ بِذَلِكَ .[٧٣]

---

[٧٢] – مسند أحمد (عالم الكتب) (٢/ ٢٩٥)(٤٨٧٣) صحيح

[٧٣] – مسند أحمد ط الرسالة (١/ ٥٢٥)(٤٩٠ ) صحيح

وعينان: قال ياقوت: هضبة جبل أحد بالمدينة،ويقال: جبلان عند أحد،ويقال ليوم أحد: عينين.=والمراد بسنة عمر هنا طريقته وهديه وسيرته،فقد كان رضي الله عنه أزهدَهم في

**ترك الجهاد خشية الفتنة:**

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي} الْآيَةَ،أَيْ:إِنْ كَانَ إِنَّمَا يَخْشَى مِنْ نِسَاءِ بَنِي الْأَصْفَرِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِهِ،فَمَا سَقَطَ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ بِتَخَلُّفِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالرَّغْبَةِ بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ،أَعْظَمُ ،وَهَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَمُجَاهِدٍ،وَغَيْرِ وَاحِدٍ:أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ،وَقَدْ كَانَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ هَذَا مِنْ أَشْرَافِ بَنِي سَلَمَةَ"[٧٤]

**الخوف على الزوجة والأولاد:**

من المثبطات عن الجهاد في سبيل الله الخوف على الزوجة والأولاد بعده أن يضيعوا،ونسي أن الله تعالى هو الذي خلقهم،وهو الذي يرزقهم،وهو الذي يحفظهم أيضا،كما أنه من واجب الدولة الإسلامية الحفاظ عليهم،فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَيْشًا،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ،فَقَالَ:" إِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ قَبْلَ ذَلِكَ أَوِ اسْتُشْهِدَ،فَأَمِيرُكُمْ جَعْفَرٌ،فَإِنْ قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ،فَأَمِيرُكُمْ

---

الدنيا،وأرغبَهم في الآخرة،وأشفقَهم على الرعية،وأكثرَهم تفقداً لأحوالهم،يُنْصِفُ مظلومَهم،ويُؤَمِّنُ خائفَهم،ويَلِيْنُ لأهلِ السلامة والدين والفضل،ويَشْتَدُّ على أهلِ الفساد والظلم والتعدي،وقد أتعب مَنْ بعده أن يَلْحَق به،أو يَجْرِيَ في مضماره،ولهذا قال عثمان رضي الله عنه: فإني لا أطيقها ولا هو.

[٧٤] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١٦١)

عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ "،فَأَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ،فَقَاتَلَ،حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ،فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ،فَقَاتَلَ،حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَفَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ،فَأَتَى خَبَرُهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ،فَحَمِدَ اللهَ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ لَقُوا الْعَدُوَّ،وَإِنَّ زَيْدًا أَخَذَ الرَّايَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ،ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ،ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ،فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ،ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ مِنْ بَعْدِهِ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ"ثُمَّ أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرٍ لَمْ يَأْتِهِمْ،ثُمَّ أَتَاهُمْ،فَقَالَ:" لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ،ادْعُ لِي بَنِي أَخِي "،فَجِيءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ،فَقَالَ:" ادْعُوا لِيَ الْحَلَّاقَ "،فَجِيءَ بِالْحَلَّاقِ،فَحَلَقَ رُءُوسَنَا،ثُمَّ قَالَ:" أَمَّا مُحَمَّدٌ فَيُشَبِّهُ عَمِّي أَبَا طَالِبٍ،وَأَمَّا عَوْنٌ فَيُشَبِّهُ خَلْقِي وَخُلُقِي"،ثُمَّ قَالَ:" اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ،وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ "،ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،فَجَاءَتْ أُمُّنَا،فَذَكَرَتْ يُتْمَنَا،فَقَالَ:" الْعَيْلَةَ تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ؟،فَأَنَا وَلِيُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ "[٧٥]

---

[٧٥] -شرح مشكل الآثار (١٣/ ١٦٤)(٥١٦٩ ) صحيح

وعَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ:جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ وَقَالَ:«إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ»[76]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ خَلَفٍ،عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ حُسَيْنًا فَقَبَّلَهُ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ:«إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ مَحْزَنَةٌ»[77]

وَالْمَوَدَّةُ الْعَادِيَّةُ الْمُوَرِّثَةُ لِلْبُخْلِ وَالْجُبْنِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ كَامِلًا فِي الْمَرْتَبَةِ الْعُبُودِيَّةِ،وَمَا يَقْتَضِيهَا مَنْ تَقَدُّمِ مَحَبَّةِ مَرْضَاةِ الرَّبِّ عَلَى مَا سِوَاهُ؛لِأَنَّهُ هُوَ الْمَحْبُوبُ الْحَقِيقِيُّ وَمَا سِوَاهُ مَطْلُوبٌ إِضَافِيٌّ [78]

**حب الدنيا وكراهية الموت ( القتال في سبيل الله ):**

تعلق الناس بالدنيا يصرفهم عن الجهاد في سبيل الله،ولكن لا يجوز للمسلم أن يفعل ذلك،لأنه يتساوى مع الكافر في هذا الحب،وقد قال تعالى عن الكفار:{قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ

---

[76] - سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٠٩)(٣٦٦٦ ) صحيح

[ ش - (مبخلة مجبنة) أي مظنة البخل والجبن. لأجله يبخل الإنسان ويجبن.]

[77] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٣٣٥)(٥٢٨٤ ) صحيح

[78] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٧٠)

أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) } [البقرة ]وقد جاءت سنة النبي ﷺ محذرة أشد التحذير من ذلك،فعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»،فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ،وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ،وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:«حُبُّ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[٧٩]

وعَنْ ثَوْبَانَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺقَالَ:«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَتَدَاعَى عَلَى الْقَصْعَةِ أَكَلَتُهَا».قِيلَ:أَوَ مِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:«لَا بَلْ أَنْتُمْ أَكْثَرُ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ،وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:«حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْآخِرَةِ»[٨٠]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِثَوْبَانَ:" كَيْفَ أَنْتَ يَا ثَوْبَانُ،إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ

---

[٧٩] - سنن أبي داود (٤/ ١١١)(٤٢٩٧ ) صحيح تداعى: التداعي: التتابع،أي: يدعو بعضها بعضا فتجيب.=الأكلة: جمع آكل.=غثاء: الغثاء: ما يلقيه السيل.جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (١٠/ ٢٨)

[٨٠] - مسند الشاميين للطبراني (١/ ٣٤٤) (٦٠٠ ) صحيح

تُصيبُونَ منْهُ؟"قَالَ ثَوْبَانُ:بأَبي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله،أَمنْ قلَّـــة بنَـــا؟ قَالَ:" لَا،بَلْ أَنْـــتُمْ يَوْمَئـــذ كَـــثيرٌ،وَلَكنْ يُلْقَـــى فـــي قُلُـــوبكُمُ الْوَهَنُ"قَالُوا:وَمَا الْوَهَنُ؟ يَا رَسُولَ الله؟ قَـــالَ:" حُـــبُّكُمُ الـــدُّنْيَا وَكَرَاهيَتُكُمُ الْقتَالَ "[81]

قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحمَهُ اللَّهُ –:(" كَغُثَاء السَّـــيْلِ "):قَـــالَ الطِّيبِـــيُّ بالتَّشْديد أَيْضًا مَا يَحْملُهُ السَّيْلُ منْ زَبَد وَوَسَخ،شَبَّهَهُمْ به لقلَّـــة شَجَاعَتهمْ،وَدَنَاءَة قَدْرِهمْ،وَخفَّة أَحْلَامهمْ،وَخُلَاصَـــتُهُ:وَلَكـــنَّكُمْ تَكُونُونَ مُتَفَرِّقينَ،ضَعيفي الْحَال،خَفيفي الْبَال،مُشَتَّتي الْآمَال،قَـــالَ الطِّيبِيُّ – رَحمَهُ اللَّهُ –:سُؤَالٌ عَنْ نَوْع الْوَهْن،أَوْ كَأَنَّهُ أَرَادَ منْ أَيِّ وَجْه يَكُونُ ذَلكَ الْوَهْنُ (قَالَ:" حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَـــةُ الْمَـــوْت ") وَهُمَا مُتَلَازمَان فَكَأَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحدٌ،يَدْعُوهُمْ إِلَى إِعْطَاء الدَّنيَّة في الدِّين منَ الْعَدُوِّ الْمُبين،وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافيَةَ فَقَد ابْتُلينَا بذَلكَ،فَكَأَنَّمَا نَحْنُ الْمَيِّتُونَ بمَا ذُكرَ هُنَالكَ.[82]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[81] – مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ٣٣٢)(٨٣٧١٣) حسن

[82] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٦٦)

(١) أنّ السّعي في إبطال الجهاد والتخلّف عنه سبب لشمول اللّعنة من الله- عزّ وجلّ- وفي التّقاعس عنه تفويت لكثير من الخير.

(٢) القعود عن الجهاد يسبّب كثيرا من المفاسد العاجلة والآجلة:فأمّا العاجلة فإنّه يستعدي الكفّار على المسلمين ويطمعهم في بلادهم،وأمّا الآجلة فإنّه سبب لتراكم الذّنوب والمعاصي.

(٣) إذا تخلّف المسلمون عن الجهاد كثر الفساد في الأرض وضاعت فرص السّلم والسّلام.

(٤) يورث الذّلّ في الدّنيا والهوان على الله في الآخرة.

(٥) مظهر من مظاهر النّفاق وسوء الأخلاق.

(٦) به تنتهك الحرم وتنهزم الأمم.

(٧) دليل الجبن والخنوع والانهزاميّة.[٨٣]

فلا يقولن أحد – بسبب ذلك – إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف،وقد تغيرت هذه الظروف! وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق يقطع به

---

[٨٣] – نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم – ﷺ-دار الوسيلة للنشر والتوزيع،جدة (٩/ ٤١٥٨)

الرؤوس! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين! إن الله - سبحانه - يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك!

ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه،لأنه طريق غير طريقهم،ومنهج غير منهجهم،ليس بالأمس فقط،ولكن اليوم وغدا،وفي كل أرض،وفي كل جيل!

وإن الله - سبحانه - يعلم أن الشر متبجح،ولا يمكن أن يكون منصفا،ولا يمكن أن يدع الخير ينمو - مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة! - فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر،ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل،ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة! هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية ..،هذه فطرة! وليست حالة طارئة ..،ومن ثم لا بد من الجهاد .،لا بد منه في كل صورة .،ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير،ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود،ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح،ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة .،وإلا كان الأمر انتحارا،أو كان هزلا لا يليق بالمؤمنين! ولا بد من بذل الأموال والأنفس،كما طلب الله من المؤمنين،وكما

اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .،فأما أن يقدر لهـــم الغلب أو يقدر لهم الاستشهاد فذلك شأنه - سبحانه - وذلـــك قدره المصحوب بحكمته .،أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم .،والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل .،والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون ..

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة،وفي منهجها الواقعي،وفي خط سيرها المرسوم،وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية،التي لا علاقة لها بتغير الظروف.

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين - تحت أي ظرف من الظروف،ومن هذه النقط .،الجهاد .،الذي يتحدث عنـــه الله سبحانه هذا الحديث .،الجهاد في سبيل الله وحـــده،وتحت رايتـــه وحدها .،وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه «شـــهداء» ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم ..[٨٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٨٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ١١٠٢)

## الفهرس العام